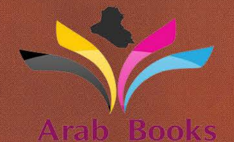
رواية

بول أوستر

رحلات في حجرة الكتابة

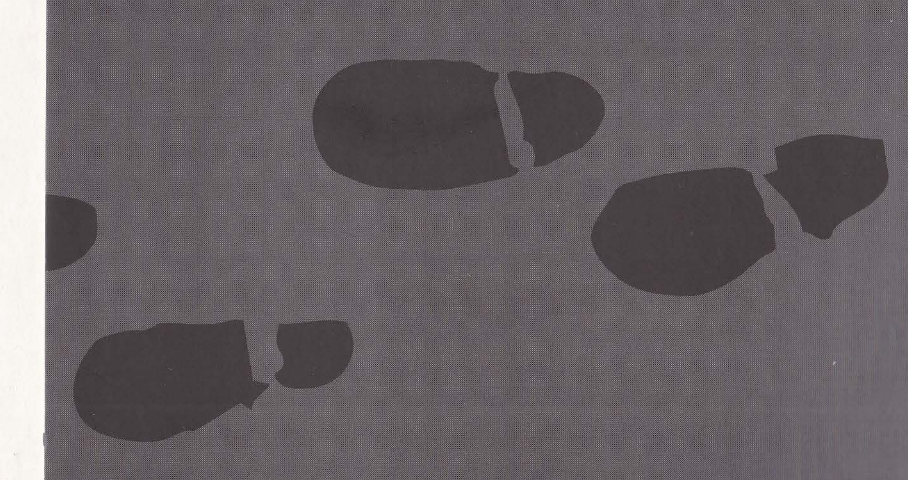
ترجمها عن الإنكليزية: سامر أبو هواش



من الرواية:

..«أنا إنسان، ولستُ ملاكاً، وإذا كان الأسى الذي استولى عليّ قد شوّش رؤيتي، وأدّى إلى بعض السقطات، فإن هذا لا يجدر به أن يُلقي أيّ شكّ على صِدْق حكايتي. قبل أن يحاول أحد أن يُجرّدني من الصِّدْقيّة من خلال الإشارة إلى تلك العلامات السود في سجلّي، فإنني سوف أعترف بذنبي، وبكل انفتاح للعالم. هذه أزمنة خؤونة، وأعرف مدى سهولة تشويه الحقائق بكلمة واحدة، تهمس للأذن الخطأ. اطعن في شخصية رجل، وكل شيء يفعله هذا الرجل يبدو خَفياً، مشكوكاً به، مزيّفاً، وله دوافع مزدوجة. في حالتي، فإن العيوب المطروحة نبعتْ من الألم، لا الحقد؛ من الارتباك، لا المكر»..



المتوسط



Tele: @Arab_Books

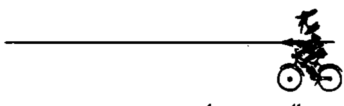
حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Travels In The Scriptorium *by* "Paul Auster"
Copyright © Paul Auster (2006)
was first published by Henry Holt and Company, LLC (New York, NY) 2007
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: بول أوستر / المترجم: سامر أبو هواش
عنوان الكتاب: رحلات في حجرة الكتابة
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-83-0



منشورات المتوسط

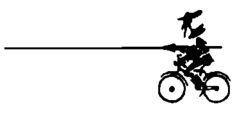
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

Tele: @Arab_Books

بول أوستر

رحلات في حجرة الكتابة

ترجمها عن الإنكليزية: سامر أبو هواش



المتوسط

Tele: @Arab_Books

إلى ذكرى لويد هستفدت

Tele: @Arab_Books

يجلس الشيخ على طرف السّرير الضّيّق، واضعاً راحتَي يدَيْه فوق ركبتَيْه، مطرقاً الرأس، يُحملق بالأرض. لا فكرة لديه بأن ثمّة كاميرا على السقف مُصوّبة مباشرة نحوه. مصراع الكاميرا يُغلق ويُفتح بصمت مرّة كلّ ثانية، مُنتجاً ثمانية وستّين ألفاً وأربعمائة صورة مع كلّ دوران للأرض. وحتّى لو عرف بأنه مُراقَب، لما شكّل ذلك أيّ فرق. فعقلُه سارح في مكان آخر، في مخيّلته، بحثاً عن جواب عن السؤال المؤرق.

مَنْ هو؟ ما الذي يفعله هنا؟ متى وصل إلى هنا؟ وكم سيبقى؟ نأمل بأن الوقت سيُخبرنا بذلك. أما في الوقت الراهن، فإن مهمّتنا الوحيدة تنحصر في دراسة الصور، بقدر ما أمكننا من التيقّظ، والامتناع عن استخلاص أيّة نتائج مُتعجّلة.

أشياء عدّة تتوزّع في أرجاء الغرفة، وفوق كلّ واحد منها شريط أبيض، كُتب عليه كلمة واحدة، بأحرف منفصلة. على منضدة السرير، مثلاً، كُتب "منضدة". وعلى المصباح "مصباح". وحتّى على الجدار، وهو لا يُعدّ "شيئاً" بكلّ معنى الكلمة، كُتب على الشريط اللاصق كلمة "جدار". يرفع الشيخ رأسه لبرهة، يرى الجدار، ويرى الشريط الملصَق عليه، ويلفظ، همساً، كلمة "جدار". ما لا يستطيع معرفته في هذه المرحلة هو ما إذا كان يقرأ الكلمة على الشريط، أو أنه يشير ببساطة إلى الجدار نفسه. ربّما يكون قد نسي القراءة، لكنّه ما يزال يُميّز الأشياء على حقيقتها، ويستطيع

Tele: @Arab_Books

معرفتها من أسمائها، أو على العكس، ربمّا فَقَدَ المقدرة على تمييز الأشياء على حقيقتها، لكنه ما يزال قادراً على القراءة.

يرتدي مَنامة قطنية مُقلّمة بخطوط زرقاء وصفراء، وفي قَدَمَيه زوج من الأخفاف الجلدية السوداء. ليس بيّناً بالنسبة إليه أين هو على وجه التعيين. صحيح أنه في الحجرة، ولكنْ، في أي مبنى تقع هذه الغرفة؟ أهي في بيت؟ أم مشفى؟ أم في سجن؟ لا يستطيع تذكُّر الوقت الذي مضى عليه ههنا، أو طبيعة الظروف التي أدّت إلى وجوده في هذا المكان. ربمّا كان هنا منذ البداية؛ ربمّا يكون هذا المكان الذي يعيش فيه منذ ولادته. ما يعرفه جيّداً أن قلبه طافح بإحساس قاتل بالذنب. وفي الوقت عينه، لا يمكنه التخلّص من شعوره بأنه ضحية ظُلم مُروّع.

في الغرفة نافذة واحدة، لكنّ الستارة مُسدَلة فوقها، وبقدر ما تُسعفه الذاكرة، فإنه لم ينظر بعد من هذه النافذة. والأمر نفسه ينطبق على الباب ومقبضه البورسلانيّ الأبيض. أهو محبوس؟ أم أنه حُرّ بالدخول والخروج كيفما يشاء؟ ما يزال عليه استكشاف ذلك، إذ إن عقله، وكما هو مبيّن في الفقرة أعلاه، سارح في مكان آخر، في الماضي، بينما يطوف متنقّلاً بين أطياف في رأسه، مكابداً للإجابة عن السؤال الذي يقضّ مضجعه.

الصور الفوتوغرافية لا تكذب، وفي الوقت نفسه، لا تروي القصّة الكاملة. فهي مجرّد سجلّ عن مرور الزمن، الدليل البرّاني على ذلك. فعلى سبيل المثال، يصعب تحديد سنّ الشيخ اعتماداً على الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، والتي تعلوها طبقة من الضباب. الحقيقة الوحيدة التي يمكن ذِكْرها بشيء من التيقّن هي أنه ليس شابّاً، غير أن كلمة "شيخ" هي تعبير فضفاض، ويمكن استعمالها لوصف الشخص في أيّ عمر ما بين السّتّين والمئة. وبالتالي سنتخلّى من الآن فصاعداً عن

Tele: @Arab_Books

كنية "الشيخ"، ونشير إلى الرجل في الحجرة باسم "السّيّد بلانك"، ولن نحتاج إلى اسم أوّل.

أخيراً ينهض السّيّد بلانك، يتريّث برهة ليحافظ على توازنه، ثمّ يجرّ قَدَمَيْه إلى المنضدة في الطرف المقابل من الحجرة. يشعر بالتعب، وكأنه أفاق للتّوّ من نوم قصير متقطّع، وصوت انجرار خفَّيْه على الأرض الخشبية العارية، يُذكِّره بصوت ورق السّنفرة. بعيداً، خارج هذه الحجرة والمبنى الذي يضمّها، يسمع زعيق طير بعيد - ربمّا كان غراباً، ربمّا نورساً، لا يستطيع أن يعرف أيّهما على وجه اليقين.

يجلس السّيّد بلانك على الكرسي وراء المنضدة. يتبيّن له كرسيّ مريح للغاية، فهو مصنوع من الجلد البنّيّ الناعم، وله ذراعان عريضان، يتّسعان لمرفَقَيْه وذراعَيْه، ناهيك عن آلية خَفيّة من النوابض، تُتيح له أن يميل الكرسي إلى الأمام والخلف متى رغب في ذلك، وهو بالضبط ما يشرع بالقيام به لحظة استوائه جالساً على الكرسيّ. فهذا التأرجح له أثر مُسكِّن في نفسه، وبينما يواصل السّيّد بلانك الاستمتاع بهذه الهزهزة السارّة، يتذكّر الحصان الهزّاز الذي كان يجلس عليه في غرفة نومه حين كان ما يزال طفلاً، ثمّ يبدأ بعيش بعض الرحلات المُتخيَّلة التي اعتاد القيام بها على صهوة ذلك الجواد، والذي كان اسمه "وايتي"، والذي لم يكن، بحسب السّيّد بلانك صغيراً، شيئاً مصنوعاً من الخشب، ومُزوَّقاً بالطلاء الأبيض، بل كائناً حيّاً، جواداً بكلّ معنى الكلمة.

بعد هذه النزهة الوجيزة إلى فتوّته المبكرة، يتصاعد الألم في حَلْق السّيّد بلانك مجدّداً. يقول بصوت مسموع، ملؤُه السأم: عليّ ألا أسمح بحدوث ذلك. ثمّ يميل إلى الأمام لكي يتفحّص أكداس الورق والصور الفوتوغرافية المكوّمة فوق بعضها على سطح المنضدة المصنوعة من

Tele: @Arab_Books

خشب الماهاغوني. يحمل الصور أوّلاً، ثلاث دزّينات من البورتريهات بالأبيض والأسود قياس ثمانية بعشرة إنشات، تمثّل رجالاً ونسوة من مختلف الأعمار والأعراق. الصورة في الأعلى هي صورة شابّة في مطلع العشرينيات. شعرها الداكن قُصَّ قصيراً، وثمّة نظرة حادّة مضطربة في عينَيْها الشاخصتَيْن نحو العدسة. تقف في الخارج في مدينة ما، ربّما كانت مدينة إيطالية أو فرنسية، لأنها تقف أمام كنيسة من القرون الوسطى، وتضع على رأسها وشاحاً، وترتدي معطفاً، فلن نُجانب الصواب، إذا افترضنا أن الصور التُقطت في الشتاء. يُحملق السّيّد بلانك بعينَيّ الشّابّة محاولاً تذكُّر مَنْ تكون. وبعد زهاء عشرين ثانية، يسمع نفسه هامساً كلمة واحدة: آنا. إحساس بالحُبّ الطاغي يجتاح كيانه. ويتساءل ما إذا كانت آنا زوجته في ماضي الأيّام، أو لعلّها تكون ابنته. بعد هنيهة واحدة من هذه الأفكار، يجتاحه شعور عارم بالذنب، ويدرك أن آنا ميتة. بل أسوأ من ذلك، يراوده حدسٌ بأنه المسؤول عن موتها. وربّما – يحدّث نفسه – يكون هو مَنْ قتلها.

يئنّ السّيّد بلانك ألماً. النَّظَرُ إلى الصور الفوتوغرافية يفوق احتماله، فيدفعها جانباً، ويُحوِّل اهتمامه نحو الورق. ثمّة أربع كدسات بالمُجمَل، كل منها بارتفاع نحو ستّة إنشات. وبلا سبب محدّد بالنسبة إليه، يمدّ يده إلى أعلى الكدسة الأبعد نحو اليسار. الكلمات المكتوبة بخطّ اليد، وبحروف منفصلة شبيهة بتلك التي على قصاصات الأشرطة البيض، على النحو التالي:

بالنظر إليها من الفضاء البعيد، لا تبدو الأرض أكثر من نقطة غبار. تذكّر هذا في المرّة التالية التي تكتب فيها كلمة: "إنسانية".

من سيماء الاشمئزاز الذي يعلو وجهه وهو يفحص بعينَيْه هذه العبارات، يمكننا القول بشيء من اليقين إن السّيّد بلانك فَقَدَ المقدرة على القراءة. لكنْ، يظلّ السؤال قائماً: مَنْ هو كاتب هذه الأسطر؟

Tele: @Arab_Books

يمدّ السّيّد بلانك يده نحو الصفحة التالية في الكدسة، ويكتشف أنها مخطوط مطبوع أو ما شابه. الفقرة الأولى هي:

لحظة بدأتُ بسرد قصّتي، صرعوني أرضاً، وركلونا رأسي بالأقدام. وحينما عاودتُ الوقوف لكي أتكلّم ثانية، لَكَمَني أحدهم على فمي، ثمّ لَكَمَني آخر على معدتي. تهاويتُ أرضاً. تمكّنتُ من النهوض ثانية، ولكنْ، ما إن شرعتُ بسَرْد قصّتي للمرّة الثالثة، حتّى رماني الكولونيل نحو الحائط، فأُغمي عليّ.

هناك فقرتان أخريان على الصفحة، ولكنْ، قبل أن يتمكّن السّيّد بلانك من قراءة الفقرة الثانية، يرنّ الهاتف. إنه هاتف أسود ذو قرص دوّار، يعود إلى نهاية الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي، وبما أنه موضوع على منضدة السرير، فإن السّيّد بلانك يضطرّ إلى النهوض عن المقعد الجلدي الوثير، وجَرِّ قَدَمَيْه إلى الطرف المقابل من الحجرة. يرفع السمّاعة عند الرنّة الرابعة.

مرحباً، يقول السّيّد بلانك.

سيّد بلانك؟ يسأل الصوت على الطرف الآخر.

إذا كان هذا ما تقوله.

أأنت واثق من ذلك؟ لا يمكنني القيام بأيّة مجازفات.

لستُ واثقاً من شيء. إذا أردتَ مناداتي بالسّيّد بلانك، فيسرّني الإجابة على هذا الاسم. مع مَنْ أتكلّم؟

جايمس.

لا أعرف أحداً يُدعى جايمس.

Tele: @Arab_Books

جايمس ب. فلود.

أنْعِشْ ذاكرتي.

جئتُ لزيارتكَ أمس. أمضينا ساعتَيْن معاً.

آه. الشرطيّ.

الشرطيّ السابق.

صحيح. الشرطي السابق. بمَ أستطيع خدمتكَ؟

أريد مقابلتكَ ثانية.

ألم تكن محادثة واحدة كافية؟

ليس فعلاً. أعرف أنني مجرّد شخصية ثانوية في هذه المسألة، ولكنْ، قيل لي إنه يُسمح لي مقابلتكَ مرَّتَيْن.

أنت تقول لي إنه لا خيار لي.

هذا ما أخشاه. لكننا لسنا مضطرَّيْن للتحدّث في الغرفة، إنْ لم تكن ترغب في ذلك. يمكننا الخروج والجلوس في الحديقة، إن كنتَ تُفضِّل.

ليس لديّ ما أرتديه. إنني أقف هنا مرتدياً المنَامة، ومُنتعلاً الخفَّيْن.

انظرْ في الخزانة. لديكَ الملابس كلّها التي تحتاج إليها.

آه. الخزانة. شكراً لكَ.

أتناولتَ فطوركَ، سيّد بلانك؟

لا أظنّ ذلك. أمسموحٌ لي بتناول الطعام؟

Tele: @Arab_Books

ثلاث وجبات يومياً. ما يزال الوقت مبكراً، لكنْ، من المفترض أن تصل آنا عمّا قريب.

آنا؟ أقلتَ آنا؟

إنها الشخص المكلّفة العناية بكَ.

حسبتُها ميتة.

بالكاد.

ربمّا كانت آنا أخرى.

أشكّ في ذلك. من بين الضالعين كلهم بهذه القصّة، هي الوحيدة التي تقف كُلّيّاً إلى جانبكَ.

والآخرون؟

فلنكتفِ بالقول إنه ثمّة الكثير من الاستياء، ولنترك المسألة عند هذا الحدّ.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

يجدر القول إنه بالإضافة إلى الكاميرا ثمّة مذياع مدسوس في أحد الجدران، وكلّ صوت يُصدره السّيّد بلانك يُعاد إنتاجُه وحِفْظُه عبر مُسجِّلة رَقْمية عالية الحساسية. أقلّ نأمة أو أنين، أقلّ سعال أو غازات تَصدر من جسده، هي بالتالي جزء أساسي من سجلّنا على حدّ سواء. ولا داعي للقول إن هذه البيانات السَّمْعية تتضمّن الكلمات التي سبق له قولها دمدمة أو لفظاً أو صراخاً، وذلك ينطبق، على سبيل المثال، على المحادثة الهاتفية، مع السّيّد جايمس ب. فلود، والتي سُجِّلَت أعلاه. تنتهي المحادثة بأن ينصاع السّيّد بلانك بتردُّد لطلب الشرطيّ السابق لمقابلته في وقت ما من ذلك الصباح. بعد أن يُقفل السّيّد بلانك السماعة، يجلس على طرف السرير الضّيّق، متّخذاً وضعيه مماثلة لتلك الموصوفة في العبارة الأولى من هذا التقرير: راحتا يدَيْه على ركبتَيْه، رأسه مُطرق، يُحملق بالأرض. يتساءل ما إذا كان عليه أن ينهض، ويبحث عن الخزانة التي أشار إليها فلود، وإذا كانت تلك الخزانة موجودة، يتساءل ما إذا كان عليه تبديل ملابسه، على فَرْض وجود ملابس في الخزانة – بالطبع إذا افترضنا وجود هذه الخزانة في المقام الأوّل. يرغب في العودة إلى النصّ المطبوع الذي بدأ بقراءته قبل أن يُقاطعه الهاتف. فينهض، ويخطو خطوة أولى متردّدة نحو الطرف المقابل من الغرفة، شاعراً بدوار مفاجئ، فيما يفعل ذلك. يُدرك أنه سيهوي أرضاً، إذا ظلّ واقفاً أكثر من ذلك، ولكنْ، بدلاً من العودة إلى السرير والجلوس على طرفه بانتظار مرور هذه المحنة، يستند بيده

Tele: @Arab_Books

اليمنى على الجدار. ثمّ، جاثياً على ركبتَيْه، يجرّ السّيّد بلانك نفسه على الأرضية مستعيناً بيدَيْه. دائخاً أم لا، فهو مُصمّم على بلوغ المنضدة، إلى درجة أنه يشرع بالزحف على أربع.

ما إن يُفلح في العودة إلى المقعد الجلديّ، حتّى يتأرجح إلى الأمام والخلف لبضع ثوان، لكي يُهدّئ أعصابه. وعلى الرغم من هذا الجهد الجسدي، فإنه يدرك أنه خائف من مواصلة قراءة النصّ. ولا يعرف لماذا يسيطر عليه مثل هذا الخوف. إنها مجرّد كلمات، يقول لنفسه، ومتى كانت الكلمات قادرة على إخافة رجل إلى هذا الحدّ؟ لن يحدث ذلك، يدمدم بصوت بالكاد مسموع. ثمّ، لكي يُطمئِنَ نفسه، يكرّر الجملة نفسها، صارخاً بكل ما أُوتي من قوّة: لن يحدث ذلك!

لسبب غامض، فإن هذا الانفجار الصوتي المفاجئ يمنحه القوّة للمواصلة. يأخذ نَفَساً عميقاً، ويُحدِّق بالكلمات أمامه. يقرأ الفقرتَيْن التاليتَيْن:

لقد حبسوني في هذه الحجرة منذ ذلك الحين. ممّا استطعتُ فَهْمه، فإنها ليست بالزنزانة النموذجية، ولا يبدو أنها جزء من معتقل عسكري أو منطقة احتجاز. إنها حجرة صغيرة جرداء، لا تتجاوز مساحتها الاثنتَي عشرة بخمس عشرة قَدَماً، وبسبب بساطة تصميمها (الأرض الترابية والجدران الحجرية السميكة)، أظنّ أنها كانت في ما مضى مخزن تموين، ربّما لأكياس الطحين والحبوب. ثمّة نافذة واحدة أُقفلت بالقضبان أعلى الجدار الغربي، إلا أنها عالية جداً بالنسبة إليّ، فلا يسعني الوصول إليها. أنام على حصيرة من القشّ في ركن الغرفة، وتُقدَّم لي وجبتان يومياً: العصيدة الباردة صباحاً، والحساء الفاتر مع الخبز الناشف مساء. ووفقاً لحساباتي، فإنني هنا منذ ٤٧ ليلة. إلا أنني قد أكون مخطئاً تماماً في هذا التقدير. أيّامي

Tele: @Arab_Books

الأولى في الزنزانة تخلّلتْها جلسات لا تُحصى من الضرب، ولأنني لا أتذكّر عدد المرّات التي غبتُ فيها عن الوعي – ولا كم دام ذلك الغياب – فمن الممكن أن أكون قد أضعتُ التعداد في مرحلة ما، ولم أتمكّن من رؤية الشمس تُشرق أو تغيب في هذا اليوم أو ذاك.

تمتدّ الصحراء مباشرة من خارج نافذتي. كل مرّة تهبّ فيها الريح من الغرب، تصلني رائحة المريمية والعرعر، خلاصة تلك المسافات الجافّة. عشتُ هناك وحيداً لقرابة أربعة أشهر، متنقّلاً بحُرّيّة من مكان لآخر، نائماً في الهواء الطَّلْق في كلّ أنواع الطقس، ولكي أعود من انفتاح تلك الأرض إلى الحدود الضّيّقة لهذه الحجرة، لم يكن أمراً سهلاً بالنسبة إليّ. أستطيع تحمُّل العزلة المفروضة عليّ، وغياب المحادثة والاتّصال مع البشر، لكنني أتوق للهواء والضوء ثانية، وأمضي أيّام مُتشوِّقاً للنظر إلى شيء ما سوى هذه الجدران الحجرية الجرداء. من وقت لآخر، أسمع الجنود تحت نافذتي. أسمع جزماتهم وهي تخبط الأرض، الانفجار غير المنتظَم لأصواتهم، قرقعة العربات والجياد في قيظ النهار البعيد. هذه هي حامية "ألتيما": الطرف الغربي الأقصى من "الكونفدرالية"، المكان الذي يقف على أطراف العالم المعروف. إننا على بُعْد أكثر من ألفَي ميل من العاصمة، نطلّ على المدى الواسع غير المدرج في خريطة لـ "الأرض الغريبة". بحسب القانون، لا يُسمح لأحد بالخروج إلى هناك، وقد ذهبتُ لأنني أُمرتُ بذلك، والآن عدتُ لكي أُسلِّم تقريري. سوف يُصغون إليّ، أو لن يصغوا إليّ، وحينئذ سوف يتمّ اقتيادي إلى الخارج ورَمْيي بالرصاص. بتُّ شبه مُتيقِّن من ذلك. والمهمّ ألا أخدع نفسي، أن أُقاوم غواية الأمل. حين يوقفونني أخيراً إلى الجدار، ويصوّبون بنادقهم نحوي، فإن الشيء الوحيد الذي سأطلبه منهم هو إزالة عصابة العينَيْن. لا لأنني مهتمّ برؤية أولئك الذين سيقومون بقَتْلي، ولكنني أريد مشاهدة السماء ثانية. هذا هو أقصى ما أريده الآن.

Tele: @Arab_Books

أن أقف في الخارج، وأنظر إلى السماء الشاسعة الزرقاء فوقي، أن أُحملق بالمطلق الهادر للمرّة الأخيرة.

يتوقّف السّيّد بلانك عن القراءة. خوفُهُ قد حلّ محلّه الارتباكُ، وبينما فهم كلّ كلمة في النصّ حتّى الآن، إلا أنه لا يدري ماذا يستخلص منه. أهو تقرير فعلي؟ يتساءل. وما هو هذا المكان الذي يُدعى "الكونفدرالية"، الذي يضمّ حامية ألتيما؟ وما هي المنطقة الغريبة الغامضة؟ ولماذا تبدو طريقة السَّرْد كأنها تعود إلى القرن التاسع عشر؟ يعي السّيّد بلانك جيّداً حقيقة أن عقله ليس في أفضل أحواله، أنه في الظلمة تماماً فيما يخصّ مكانه وسبب وجوده هناك، ولكنه مُتيقِّن باعتدال من أن اللحظة الراهنة يمكن وَضْعُها في مكان ما في مطلع القرن الحادي والعشرين، وأنه يعيش في بلد، يُدعى الولايات المتّحدة الأمريكية. الفكرة الأخيرة تُذكِّره بالنافذة، أو، للدّقّة أكثر، بستارة النافذة، التي أُلصق عليها شريط أبيض، كُتب عليه "ستارة". مع ضغط أخمصَيْ قَدَمَيه على الأرض، وذراعاه يضغطان على ذراعَي المقعد الجلدي، يدور في مكانه بمقدار تسعين إلى مئة درجة، لكي يُلقي نظرة على ستارة النافذة –ذلك أن هذا الكرسي لا يتمتّع بخاصّيّة الهزّ فحسب، بل يمكنه الدوران أيضاً. وهذا الاكتشاف الأخير يبعث السرور في نفس السّيّد بلانك، إلى درجة أنه ينسى لبرهة السبب الذي أراد من أجله النَّظَر إلى ستارة النافذة، مغتبطاً بدلاً من ذلك بما كان حتّى حينه خاصّيّة مجهولة للكرسي. يدور مرّة، ثمّ اثنتَيْن، ثمّ ثلاث، وبينما يفعل ذلك، يتذكّر الجلوس على الكرسي عند الحلاق في صغره، وكيف كان الحلاق روكو يدير الكرسي به قبل أن يبدأ بقَصّ شعره.

لحسن الحظّ حين يتوقّف السّيّد بلانك أخيراً عن الدوران، فإن الكرسي يتّخذ تقريباً الوضعية نفسها التي كان عليها قبل أن يبدأ بالدوران، ما

Tele: @Arab_Books

يعني أنه مرّة أخرى ينظر إلى ستارة النافذة، ومجدّداً، بعد هذه الاستراحة المبهجة، يتساءل السّيّد بلانك ما إذا كان عليه أن يقترب من النافذة، ويرفع الستارة، ويلقي نظرة إلى الخارج، ليعرف مكانه. ربّما لم يعد في أمريكا، يقول لنفسه، إنما في بلد آخر، وقد خطفه تحت جنح الظلام عملاء سرّيّون، يعملون لدولة أجنبية.

لكنّ دورانه الثلاثيّ على الكرسيّ تسبّب له ببعض الدوخة، ويتردّد في أن يتزحزح من موضعه، خشية من أن الاضطرار مجدّداً إلى الزحف على أربع. ما لا يُدركه السّيّد بلانك بعد هو أنه إضافة إلى قدرته على أن يهزّ بالكرسي ويدور به، فإن هذا الكرسيّ الجلدي مُزوّد أيضاً بأربع عجلات، تُتيح له الارتفاع إلى ستارة النافذة دون أن يضطرّ للوقوف. غير عالم أن ثمّة وسائل رفع أخرى متوفّرة له إلى جانب قَدَمَيْه، فإن السّيّد بلانك يبقى في مكانه على الكرسي مُديراً ظهره للمنضدة، ناظراً إلى ستارة النافذة التي كانت بيضاء يوماً، لكنها الآن مالت إلى الاصفرار، محاولاً أن يتذكّر المحادثة بعد ظهر يوم أمس مع الشرطي السابق جايمس ب. فلود. يبحث في عقله عن صورة، إشارة ما عن مظهر الرجل، ولكنْ، بدلاً من أن يكوّن أيّة صور واضحة، يشعر بذلك الإحساس الغامر بالذنب يجتاح عقله مجدّداً. غير أنه وقبل أن تتحوّل نوبة الخوف والعذاب الجديدة هذه إلى رعب تامّ، يسمع السّيّد بلانك قَرْعاً على الباب، ثمّ صوت مفتاح يدخل في القفل. أيعني هذا أن السّيّد بلانك مسجون في الغرفة، غير قادر على مغادرتها إلا عبر لطافة الآخرين، وحُسن نيّتهم؟ ليس بالضرورة. يمكن أن يكون الأمر أنه هو مَنْ أقفل الباب من الداخل، وأن الشخص الذي يحاول الدخول إلى الغرفة عليه أن يفتح هذا القفل، ليتمكّن من عبور الباب، مُوفّراً على السّيّد بلانك بالتالي عناء الاضطرار إلى الوقوف وفَتْح الباب بنفسه.

بهذه الطريقة أو تلك، الباب يُفتَح الآن، وتدخل امرأة ضئيلة متوسّطة

Tele: @Arab_Books

العمر– ما بين الخامسة والأربعين والسّتّين - يفكّر السّيّد بلانك، ولكنه من الصعب التّيقُّن تماماً. شعرها الرمادي قصير، وهي ترتدي سروالاً كحلياً وبلوزة قطنية زرقاء فاتحة، وما إن تدخل الغرفة حتّى تبادر السّيّد بلانك باتسامة. هذه الابتسامة التي يبدو أنها تجمع بين الرقّة والعطف في آن، تُبدِّد مخاوفه، وتُعيد إليه شيئاً من توازنه وسكونه. لا فكرة لديه عمّنْ تكون، لكنّ هذا لا يُقلّل من سعادته لرؤيتها.

أنمتَ جيّداً؟ تسأله المرأة.

لستُ واثقاً، يجيب السّيّد بلانك. لكي أكون صادقاً تماماً، لا أتذكّر ما إذا كنتُ قد نمتُ أم لا.

جيّد، هذا معناه أن العلاج يُؤتي ثماره.

بدلاً من أن يُعلّق على هذا الإعلان الغامض، يتملّى السّيّد بلانك وجه المرأة لثوان معدودات بصمت، ثمّ يسألها: عذراً على كوني بمثل هذا الغباء، ولكنْ، أليس اسمكِ آنا؟

مجدّداً، تبتسم له المرأة ابتسامة رقيقة عطوفة. يسعدني أنك تذكَّرتَهُ، تقول، بالأمس ما فتئتَ تنساه طوال الوقت.

فجأة يبدأ السّيّد بلانك، مبلبلاً مستثاراً، بالدوران في مقعده الجلدي حتّى يصبح بمواجهة المنضدة، ثمّ يرفع بورتريه الشّابّة عن كدسة الصور التي بالأبيض وأسود. وقبل أن يدور ثانية لينظر إلى المرأة التي يبدو أن اسمها آنا، يجدها واقفة بجانبه واضعة يدها برقّة على كتفه الأيمن، ناظرة إلى الصورة مثله.

إذا كان اسمكِ هو آنا، يقول السّيّد بلانك بصوت يرتعش حماسة، فمَنْ هي هذه؟ هي أيضاً اسمها آنا، أليس كذلك؟

Tele: @Arab_Books

هذا صحيح، تقول المرأة، ممعنة النظر في البورتريه، وكأنها تتذكّر شيئاً ما بمشاعر متضاربة، وإنما متساوية من التقزُّز والحنين. هذه آنا. وأنا أيضاً آنا. هذه صورتي.

ولكنْ، يقول السّيّد بلانك متلعثماً، ولكنْ ... الفتاة في الصورة شابّة. وأنتِ... أنتِ شعركِ رماديّ.

إنه الزمن، سيّد بلانك، تقول آنا. أنتَ تفقه معنى الزمن، أليس كذلك؟ هذه أنا قبل خمسة وثلاثين عاماً.

قبل أن يتسنّى له الرّدّ، تُعيد آنا البورتريه الذي يُمثِّلها شابّة فوق كدسة الصور.

إفطاركَ سيبرد، تقول، ودون أن تنطق بكلمة أخرى، تغادر الحجرة، لتعود بعد هنيهة، وهي تجرّ عربة من الفولاذ، عليها صينية طعام، تضعها بجانب السرير.

تتكوّن الوجبة من كوب من عصير البرتقال، وشريحة من التوست بالزبدة، وبيضتَيْن مسلوقتَيْن في زبديّة بيضاء صغيرة، وإبريق من شاي إيرل غراي. في اللحظة المناسبة، سوف تساعد آنا السّيّد بلانك على النهوض عن مقعده، وتقوده إلى السرير، لكنها قبل ذلك تناوله كوباً من الماء وثلاث حبّات دواء – إحداهما خضراء، والثانية بيضاء، والثالثة أرجوانية.

ما بي؟ يسألها السّيّد بلانك، هل أنا مريض؟

لا، على الإطلاق، تجيبه آنا. الحبوب هي جزء من العلاج.

لا أشعر بالسقم. ربمّا أكون متعباً ودائخاً بعض الشيء، ولكنني باستثناء ذلك لا أعاني من أيّة أعراض رهيبة. إذا ما أخذنا سنّي في الحسبان، فالوضع ليس رهيباً على الإطلاق.

Tele: @Arab_Books

اِبْتَلِعِ الحبّات، سيّد بلانك، ثمّ يمكنكَ تناول الإفطار. أنا متأكّدة أنكَ جائع جداً.

لكنني لا أريد تناوُل الحبوب، يجيب السّيّد بلانك، متشبّثاً بموقفه. لستُ مريضاً، ولن أبتلع هذه الحبوب البائسة.

بدلاً من أن تردّ بقسوة عليه بعد هذا الكلام العدواني الفظّ، تنحني آنا، وتطبع قبلة على جبينه. عزيزي السّيّد بلانك، تقول له، أفهم شعوركَ، ولكنكَ وَعَدْتَ بتناوُل الحبوب يومياً. هذه هي الصفقة. إنْ لم تتناول الحبوب، فلن يُؤتي العلاج ثماره.

أنا وعدتُ بذلك؟ يقول السّيّد بلانك. وأنّى لي أن أعرف أنكَ تقولين الحقيقة؟

لأنّ هذه أنا، آنا، ولا يمكن أن أكذب عليكَ. أنا أحبُّكَ كثيراً، فلا يمكن أن أفعل ذلك.

كلمة "حُبّ" تلين السّيّد بلانك، فيقرّر التراجع سريعاً. حسناً، يقول، سأتناول الحبوب، لكنْ، فقط إذا قبّلتِنِي ثانية. موافقة؟ ولكنْ، يجب أن تكون قبلة حقيقية هذه المرّة، على الشفتَيْن.

تبتسم آنا، ثمّ تنحني عليه ثانية، وتُقبّله مباشرة على الفم قُبلة، تدوم ثلاث ثوان، قُبلة ترتقي إلى أكثر من قُبلة سريعة، وعلى الرغم من عدم تدخُّل اللسان، فإن هذا التواصل الحميم يسري في جسد السّيّد بلانك وخزاً من الاستثارة. وفي الوقت الذي تستغرقه لتُعاود الوقوف باستقامة، يكون قد ابتلع الحبّات الثلاث.

الآن هما جالسان جنباً إلى جنب على طرف السرير، وأمامهما عربة

Tele: @Arab_Books

الطعام، وبينما السّيّد بلانك يشرب عصير البرتقال، ويأخذ قضمة من التوست، ويرتشف رشفة من الشاي، تقوم آنا بفَرْك ظهره بنعومة، بيُسراها، مُدندنة لحناً، لا يتمكّن من تعرُّفه، ولكنه يعرف أنه مألوف بالنسبة إليه، أو كان كذلك ذات يوم. ثمّ يبدأ بالتهام البيضتَيْن المسلوقتَيْن، مخترقاً صفار إحداهما بطرف ملعقته، ثمّ جامعاً مزيجاً بسيطاً من الصفار والبياض في تجويف الملعقة، ولكنْ، حين يحاول رفع الملعقة إلى فمه، يشعر بالحيرة، إذ يكتشف أن يده ترتعش. ليست مجرّد رجفة صغيرة، بل ارتعاش جليّ مُتشنّج، لا يجد في نفسه القدرة على السيطرة عليه. وفي الوقت الذي تكون فيه الملعقة قد انتقلتْ مسافة ستّة إنشات فوق الزبدية، فإن نوبة الارتعاش القوية تكون قد أطاحت معظم المزيج فوق الصينية.

أتودّ أن أُطعمكَ بنفسي؟ تسأله آنا.

ما بي؟

ليس ثمّة ما يدعو إلى القلق، تجيبه، مربّتة ظهره في محاولة لإدخال الطمأنينة إلى نفسه. إنها ردّة فعل طبيعية، بسبب الحبوب، وسوف تزول في غضون دقائق معدودات.

يا له من علاج! يدمدم السّيّد بلانك بنبرة مُتجهِّمة مُفعمة إشفاقاً على النَّفْس.

كلُّ هذا لصالحكَ، تقول آنا، وصدِّقني لن يدوم إلى الأبد.

وهكذا يسمح السّيّد بلانك لآنا بإطعامه، وبينما تقوم بهدوء بغَرْف مقادير من البيض المسلوق، حاملة كوب الشاي قرب شفتَيْه، وماسحة فَمَهُ بمنديل ورقيّ، يبدأ السّيّد بلانك بالتفكير بأن آنا ليست امرأة، بقدر ما أنها ملاك، أو – إذا شئتَ – إنها ملاك على هيئة امرأة.

Tele: @Arab_Books

لمَ أنتِ لطيفة معي؟

لأنني أحبّكَ، تقول. الأمر بهذه البساطة.

الآن، وقد انتهت الوجبة، فقد آن أوان التّغوُّط والاغتسال وارتداء الملابس. آنا تُبعد العربة عن السرير، ثمّ تمدّ يدَيْها نحو السّيّد بلانك، لكي تساعده على النهوض. ووسط ذهوله الكبير، يجد نفسه واقفاً قبالة باب، باب لم يره حتّى تلك اللحظة، وعلى سطح هذا الباب قصاصة ورق بيضاء أخرى، كُتب عليها "حمّام". يتساءل السّيّد بلانك كيف فاتتْهُ رؤية ذلك، بما أنه لا يبعد سوى خطوات معدودات عن السرير، ولكنْ، كما علم القارئ سَلَفَاً، فإن أفكاره كانت شاردة بعيداً، في ضباب من الكائنات الشبحية والذكريات المتبدّدة، في خضمّ بحثه عن جواب عن السؤال الذي يقضّ مضجعه.

أتريد أن تذهبَ؟

أذهبُ؟ يجيب، أذهبُ إلى أين؟

إلى الحمّام. أتحتاج إلى زيارة الحمّام؟

آه، الحمّام. أجل. الآن وقد ذكرتِ الأمرَ، أظنّ أنها فكرة جيّدة.

أتريدني أن أساعدكَ؟ أم يمكنكَ تدبُّر أمركَ؟

لستُ متأكّداً. دعيني أحاول، ولنرَ ماذا يحدث.

تدير آنا مقبض الباب البورسلانيّ، فيُفتح الباب. وبينما يدلف السّيّد بلانك متثاقلاً إلى الحمّام الأبيض معدوم النوافذ، ذي الأرضية السوداء والبيضاء، تُغلق آنا الباب وراءه، ولدقائق عدّة، يكتفي السّيّد بلانك بالوقوف في مكانه، ناظراً إلى الحمّام الأبيض على الجدار الأبعد، شاعراً

Tele: @Arab_Books

فجأة بالثكل، توّاقاً لأن يكون بصحبة آنا ثانية. أخيراً يهمس في سرِّه: تماسَكْ، أيها الشيخ المُسنّ. إنكَ تتصرّف كالأطفال. ورغم ذلك، وبينما يتقدّم ببطء من الحمّام، ويبدأ بإخفاض سرواله، تحدوه رغبة جارفة في البكاء.

يُنزل السروال إلى ركبتَيْه؛ يجلس على كرسي المرحاض؛ مثانتُه وأمعاؤُه تتأهّبان للتّخلُّص من مُكوّناتها الصلبة والسائلة. يتدفَّق البول من عضوه، ثمّ تنزلق قطعة براز من شرجه، تليها قطعة أخرى، وكم يشعر بالراحة، إلى درجة أنه ينسى الحزن الذي عصف به قبل ثوان فقط. بالطبع يمكنه تدبُّر أمره بنفسه، يُحدِّث نفسه. وقد كان يفعل ذلك مذ كان فتى صغيراً، وحينما يتعلَّق الأمر بالتّبوُّل والتّبرُّز، فإنه يمكنه فعل ذلك شأن أيّ إنسان في العالم. ليس هذا فحسب، لا، بل هو خبير أيضاً في مَسْح مؤخّرته.

فليحظَ السّيّد بلانك بلحظته الصغيرة هذه من الكبرياء، إذ مهما بلغ نجاحه في إكمال الجزء الأوّل من العملية، فإن الجزء الثاني لا يكاد يقترب من نجاح الجزء الثاني. لا يواجه مشكلة في النهوض عن المقعد ودَفْق الماء، ولكنْ، ما إن يفعل ذلك حتّى يُدركَ أن سرواله ما يزال مجتمعاً عند ركبتَيْه، ولكي يرفعهما، عليه إمّا الانحناء، أو أن يتمدّد أرضاً، ويرفع السروال. لا يشعر بالقدرة على الانحناء، ولا القرفصة اليوم، لكنْ، بين الاثنَيْن يشعر بخشية أكبر من الانحناء، بما أنه يعي احتمال أن يفقدَ توازنه ما إن يخفض رأسه، كما يدرك أنه إذا فَقَدَ توازُنَهُ بالفعل، فسوف يهوي أرضاً، ويُحطّم رأسه على البلاط الأبيض والأسود. وبالتالي، فإنه يخلص إلى أن القرفصة هي أهونُ الشّرَّيْن، وإن كان أبعد ما يكون وثوقاً من أن ركبتَيْه تستطيعان حملَ الجهد الذي سيُلقيه عليهما. لن نعرف البتّة الجواب عن ذلك. ذلك أن آنا، التي نبَّهها دَفْق الماء في مقعد المرحاض، افترضتْ بأنه أنهى المهمّة، ففتحت الباب، ودلفتْ إلى الحمّام.

Tele: @Arab_Books

ربّما يحسب المرء أن السّيّد بلانك سيكون مُحرَجاً في أن يجد نفسه في مثل هذه الوَضْعيّة المُذِلَّة (واقفاً هناك، وقد تدلّى سروال بيجامته، وعُضوه المُرتخي يتدلّى بين ساقَيْه العجفاوَيْن العاريتَيْن)، ولكنْ، هذه لم تكن حاله. فهو يشعر بالتواضع الزائف أمام آنا. في حقيقة الأمر، إنه أكثر من مُغتبط بالسماح لها برؤية أيّ كان ما هو موجود لرؤيته، وبدلاً من أن يُسارع إلى القرفصة، لكي يرفع سرواله، فإنه يبدأ بفَكّ أزرار سترة البيجاما، لكي يخلعها على حدّ سواء.

أرغب في الاستحمام الآن، يقول.

أترغب في حمّام حقيقيّ في الحوض؟ أم مجرّد حمّام سريع وقوفاً؟

لا يهمّ. أنتِ قرِّري.

تُلقي آنا نظرة على الساعة في معصمها، وتقول، ربّما مجرّد حمّام سريع. فقد بدأ الوقت يتأخّر الآن، وما يزال أمامي مهمّة إلباسكَ وترتيب السرير.

في هذه الأثناء، يكون السّيّد بلانك قد خلع بيجامته بالكامل وخفَّيْه أيضاً. باعتيادية لا تنمّ عن الانزعاج، جرّاء مشاهدتها الشيخ العاري، تتقدّم آنا من مقعد الحمّام، وتُقفل الغطاء، وتربّت الغطاء مرَّتْين براحة يدها مشيرة إلى السّيّد بلانك، لكي يجلس عليه. السّيّد بلانك يجلس، وآنا تجثم قُربه على حافة حوض الاستحمام، وتفتح الماءَ الحارَّ، وتبدأ بتبليل قطعة قماش بيضاء تحت الصنبور.

ما إن تبدأ آنا بلَمْس جسد السّيّد بلانك بالقماشة الدافئة المخضَّلة بالصابون، حتّى يستسلم تماماً كالمغشى عليه، مستمتعاً بالإحساس بيدَيْها الرقيقَتَيْن على جسده. تبدأ من الأعلى، وتنحدر ببطء إلى الأسفل، غاسلة أذنَيْه، وخلفهما، ورقبته من الأمام والخلف، وتجعله يستدير على

Tele: @Arab_Books

المقعد، لكي تفرك ظهره، ثمّ تُديره ثانية نحوها، لتفعل الأمر نفسه على صدره، متوقّفة كل خمس عشرة ثانية أو نحوها، لكي تغمّس القماشة بالماء، مضيفة المزيد من الصابون وشاطفة الصابون القديم، وفقاً على ما إذا كانت ستنظّف بقعة معيّنة من جسد السّيّد بلانك أم ستزيل الصابون من بقعة أخرى سبقَ وأن نظّفتْها. يُغمض السّيّد بلانك عينَيْه، وقد فرغ رأسه فجأة من الأطياف ومن الأشكال المرعبة التي طاردتْه منذ الفقرة الأولى من هذا التقرير. وفي الوقت الذي تكون فيه القماشة قد انحدرت إلى بطنه، يبدأ شكل عُضوه بالتّغيّر، فيغدو أطول وأعرض، ويكتسب انتصاباً جزئياً، والسّيّد بلانك يتعجّب من أنه حتّى في شيخوخته هذه، فإن عضوه ما يزال يتصرّف كسابق عهده، غير مُعدّل في سلوكه ولا مرّة منذ بداية بلوغه. الكثير تغيّر منذ ذلك الحين، إلا هذا الشيء، والآن وقد جعلتْ آنا المنشفة تحتكَ مباشرة بذلك الجزء من جسده، فإنه يستطيع الإحساس بتصلُّب عضوه وصولاً إلى الانتصاب التّامّ، وبينما تقوم بالفَرْك والتّمسيد بالمياه الرغوية الدافئة، فكلّ ما يمكنه فِعْلُه هو مَسْكُ نفسه عن الصراخ راجياً إيّاها أن تُنهي المهمّة.

إننا نشعر بالخطر اليوم، سيّد بلانك، تقول آنا.

أخشى ذلك، يهمس السّيّد بلانك، وعيناه ما تزالان مُغمضتَيْن. لا يسعني الحيلولة دون ذلك.

لو كنتُ مكانكَ، لافتخرتُ بنفسي. ليس كلّ رجل في مثل سنِّكَ ما يزال قادراً ... على هذا.

لا صلة للأمر بي. هذا الشيء له حياة قائمة بذاته.

فجأة تنتقل القماشة إلى ساقه اليمنى. وقبل أن يتمكّن السّيّد بلانك

Tele: @Arab_Books

من الإحساس باختلاجة خيبة الأمل في نفسه، يحسّ بيد آنا العارية تنزلق صعوداً ونزولاً على عضوه المبُلّل. يدها اليمنى تُواصل غسله بالقماشة، لكنّ يدها اليسرى منخرطة الآن في هذه المهمّة الأخرى من أجله، وحتّى وهو يخضع لهذه العناية المُدرّبة لليد اليسرى، فإنه يتساءل ما الذي فعله ليستحقّ مثل هذه المعاملة السخيّة!

ينهج لاهثاً حين يتدفّق المَنيّ منه، وحينئذ فقط، بعد أن تمّ الصنيع، يفتح عينَيْه، ويلتفت نحو آنا. لم تعد جالسة على طرف حوض الاستحمام، بل باتت تجلس راكعة على الأرض أمامه، منشغلة بمَسْح مَنيه بالقماشة. رأسها مُطرِق، وبالتالي لا يتمكّن من رؤية عينَيْها، ومع ذلك، يميل إلى الأمام، ويلمس وجنتها اليسرى بيده اليمنى. آنا تنظر إليه حينئذ، ومع التقاء عيونهما ببعضها، تُفسح له عن ابتسامة أخرى من ابتساماتها الرقيقة الحنون.

أنتِ طيّبة جداً معي، يقول.

أريدكَ أن تكون سعيداً، تجيبه. إنه وقتٌ عصيبٌ بالنسبة إليكَ، وإذا تمكّنتَ من العثور على بضع لحظات من المتعة في خضمّ هذا كله، فمن دواعي سروري المساعدة.

لقد اقترفتُ بحقّكِ شيئاً فظيعاً. لا أعرف ما هو، لكنّه فظيع ... لا يُوصَف ... لا يمكن غفرانه. وها أنتِ ذا تهتمّين بي كالقدّيسة.

لم يكن الذنبُ ذنبَكَ. لقد فعلتَ ما توجّبَ عليكَ فعْلُه، وأنا لا أحمل في قلبي أيّة ضغينة تجاهكَ.

لكنّكِ تعذّبتِ. لقد تسبَّبتُ لكِ بالعذاب، أليس كذلك؟

أجل، عذاب مرير. كدتُ ألا أتمكّن من النجاة بحياتي.

Tele: @Arab_Books

ماذا فعلتُ؟

لقد أرسلتَني إلى مكان خطر، مكان مَيؤوس منه، مكان للدمار والموت.

ما كان ذلك؟ مهمّة ما؟

أظنّ أنكَ تستطيع تسميتها كذلك.

كنتِ يافعة حينذاك، صح؟ كنتِ تلك الفتاة في الصورة.

أجل.

كنتِ بالغة الجمال آنا. إنكِ أكبر سنّاً الآن، لكنني ما أزال أجدكِ جميلة. بل مثالية تقريباً، لو فهمتِ مقصدي.

لستَ مضطرّاً إلى المبالغة، سيّد بلانك.

لستُ أبالغ. لو قال لي أحدهم إنّ عليّ أن أنظر إليكِ لمدّة أربع وعشرين ساعة في اليوم لبقية حياتي، لما اعترضتُ البتّة.

مجدّداً تبتسم آنا، ومجدّداً يلمس السّيّد بلانك وجنتَهَا اليسرى بيده اليمنى.

كم بقيتِ في ذلك المكان؟

بضع سنوات. أكثر بكثير ممّا كنتُ أتوقّع.

لكنني تمكّنتُ من الخروج.

في النهاية، أجل.

أشعر بالخزيّ التّامّ.

Tele: @Arab_Books

ليس عليكِ ذلك. في حقيقة الأمر، سيّد بلانك، لولاكَ لما كنتُ أحداً.

مع ذلك ...

ليس من "مع ذلك" ... أنتَ لستَ كسائر الرجال. لقد ضحَّيتَ بحياتكَ من أجل شيء أعظم من ذاتكَ، وأيّاً كان ما فعلتَهُ أو لم تفعله، فإنه لم يكن لأسباب أنانية.

أكنتِ مغرمة يوماً آنا؟

مرّات عدّة.

أأنتِ متزوّجة؟

كنتُ.

كنتِ؟

توفيّ زوجي قبل ثلاث سنوات.

ما كان اسمه؟

دافيد. دافيد زيمر.

ماذا جرى؟

كان قلبه معتلاً.

أأنا مسؤول عن موته أيضاً؟

ليس حقّاً ... ليس مباشرة.

إنني آسفٌ جداً.

Tele: @Arab_Books

لا تكن كذلك. لولاكَ لما التقيتُ دافيد في المقام الأوّل. صدِّقني، سيّد بلانك، الذنب ليس ذنبكَ. أنت تفعل ما عليكَ فعْلُه، ثمّ تحدث الأمور. الأمور الجيّدة والسّيّئة معاً. هكذا حال الأمور. ربمّا نكون مَنْ نتعذّب، ولكنْ، ثمّة أسباب لذلك، سبب وجيه، وكلّ مَنْ يتذمّر من ذلك لا يفهم معنى أن يكون على قيد الحياة.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

يجب أن نُسجِّل هنا أن ثمّة كاميرا ثانية وآلة تسجيل أخرى زُرعتا في سقف الحمّام، ممّا يجعل كلّ ما يجري في ذلك المكان مُسجَّلاً أيضاً، ولأن كلمة "كلّ" هي تعبير مُطلَق، فإن نصّ المحادثة بين آنا والسّيّد بلانك يمكن التأكيد عليها في تفاصيلها كافّة.

يتواصل الحمّام السريع لدقائق أخرى، وبعد أن تُنهي آنا غسل وشطف بقية الأجزاء في جسد السّيّد بلانك (الرِّجلان من الأمام والخلف؛ الكاحلان، القَدَمَان، وأصابع القَدَمَيْن؛ الذراعان، اليدان وأصابع اليدَيْن؛ الصفن، الردفان، والشَّرْج)، تجلب رداء قطنياً أسود مُعلّقاً على الباب، وتساعد السّيّد بلانك على ارتدائه. ثمّ تحمل البيجاما المُقلّمة بخطوط زرق وصفر، وتدخل إلى الغرفة الأخرى، حريصة على تَرْك الباب مشرعاً. وبينما يقف السّيّد بلانك أمام المرآة الصغيرة فوق المغسلة، حالقاً بآلة حلاقة، تعمل على البطارية (لأسباب بيّنة، فإن شفرات الحلاقة التقليدية ممنوعة)، تطوي آنا البيجاما، وتُرتِّب السرير، وتفتح الخزانة، لكي تختار الملابس التي سيرتديها السّيّد بلانك في ذلك اليوم. تتحرَّك سريعاً وبفعالية، وكأنها تحاول تعويض الوقت الضائع. وتنهي مهمّاتها بسرعة شديدة، بحيث إنه حين ينهي السّيّد بلانك الحلاقة، ويدخل إلى الغرفة الأخرى، يجفل لرؤية ملابسه على السرير. ومُتذكِّراً محادثته مع جايمس ب فلود، وذِكْر كلمة "خزانة"، كان يأمل في أن يلمح آنا وهي تفتح باب الخزانة، لكي يحدِّد

Tele: @Arab_Books

موقعها. الآن، وفي حين تطوف عيناه الغرفة، لا يرى أيّة إشارة لها، ويبقى سرّ آخر دون حلّ.

يمكنه بالطبع سؤال آنا عن موضعها، ولكنه ما إن يراها هي نفسها جالسة على السرير تبتسم له، فإنه يتأثّر لكونه في حضورها ثانية، بحيث إنه ينسى السؤال.

بدأتُ أتذكّرِكِ الآن، يقول. ليس بصورة تامّة، إنما ومضات سريعة، شذرات من هنا وهناك. كنتُ يافعاً جداً حين قابلتُكِ للمرّة الأولى، أليس كذلك؟

في الحادية والعشرين تقريباً، على ما أظنّ. تقول آنا.

ولكنني ما فتئتُ أفقدكِ. فأنتِ تحضرين لأيّام قليلة، ثمّ تختفين. يمرّ عام، ثمّ عامان، وأربعة، ثمّ تظهرين ثانية فجأة.

لم تعرف ماذا تفعل بي، هذا هو السبب. تطلَّبَكَ الأمر طويلاً قبل أن تعرف.

ثمّ أرسلتُكِ في ... في مهمّتكِ. أتذكّر أنني جزعتُ عليكِ. ولكنكِ كنتِ محاربة حقيقية في ذلك الحين، أليس كذلك؟

فتاة قوية ومُتحمِّسة، سيّد بلانك.

تماماً. وهذا ما أمدّني بالأمل. لو لم تكوني على هذه الشاكلة، لما تمكّنتِ من النجاح.

دعني أساعدكَ بارتداء ملابسكَ، تقول آنا، وهي تختلس نظرة إلى ساعتها. الوقت يمضي سريعاً.

Tele: @Arab_Books

كلمة "تمضي سريعاً" تدفع السّيّد بلانك إلى التفكير بنوبات الدوار والصعوبات السابقة في المشي، أما الآن، فإنه يقطع المسافة القصيرة من عتبة الحمّام إلى السرير، ويتشجّع حين يلاحظ أنه يتمتّع بصفاء الذهن، وأنه ما عاد يخشى السقوط. وفي غياب ما يدعم فرضيّته هذه، فإنه يعزو هذا التحسّن إلى آنا العطوفة، إلى الحقيقة الصرفة بأنها كانت معه خلال العشرين أو الثلاثين دقيقة الماضية، بعاطفتها المشعّة التي يتوق إليها أشدّ التوق.

يتّضح أن الملابس كلها بيضاء: بنطال قطنيّ أبيض، وقميص ذو أزرار أبيض، وسروال داخليّ أبيض، وجوربان أبيضان، وحذاء تنس أبيض.

خيار غريب، يقول السّيّد بلانك، سوف أبدو مثل بائع الآيس كريم الجوّال.

لقد كان هذا طَلَباً خاصاً، تردّ آنا. من بيتر ستيلمان. ليس الأب، بل الابن. بيتر ستيلمان جونيور.

ومَن يكون؟

ألا تذكره؟

أخشى أنني لا أذكره.

إنه أحد مسؤوليّاتكَ الأخرى. حين أرسلتَهُ في مهمّته، كان عليه أن يرتدي ملابس بيضاء بالكامل.

كم شخصاً أرسلتُ؟

المئات، سيّد بلانك. أناس أكثر من أن أستطيع إحصاءهم.

Tele: @Arab_Books

حسناً، فلندع هذا الأمر. لا أظنّ أنّ هذا يشكّل أيّ فارق.

دون تضييع المزيد من الوقت، يحلّ طوق الرداء، ويتركه يسقط أرضاً. مجدّداً يقف عارياً أمام آنا، دون أن يشعر بأقلّ حَرَج أو حياء. ناظراً إلى الأسفل، ومشيراً إلى عضوه، يقول: انظري كم هو صغير. الشخصية الكبيرة لم تعد كبيرة إلى هذا الحدّ.

تبتسم آنا، ثمّ تمُسّد السرير براحة يدها، داعية إيّاه إلى الجلوس بجوارها. وبينما يفعل ذلك، يجد السّيّد بلانك نفسه وقد عادت به الذاكرة ثانية إلى طفولته، إلى أيّام "وايتي" الحصان الهزّاز ورحلاتهما الطويلة معاً في صحارى الغرب البعيد وجباله. يتذكّر أمّه وكيف اعتادت أن تُلبِسَه على هذا النحو في غرفته الكائنة في الطابق العلوي، بينما شمس الصباح تتسلّل عبر الستائر، وإذ يتذكّر فجأة أن أمّه ميّتة، ربمّا منذ زمن بعيد، يتساءل ما إذا كانت آنا قد أضحتْ أمّاً جديدة له، حتّى في عمره المتقدّم هذا، وإلا فلمَ يشعر بكلّ هذا الارتياح معها، هو الذي يكون عامّة حَيّياً ومُتحفّظاً فيما يتعلّق بعرض جسده أمام الآخرين؟!

تنهض آنا عن السرير، وتقرفص أمام السّيّد بلانك. تبدأ بالجوربَيْن، القَدَم اليسرى، ثمّ اليمنى، ثمّ تنتقل إلى السروال التحتيّ الذي تُدخله من قَدَمَيْه، ثمّ ترفعه عالياً بمساعدة السّيّد بلانك الذي يقف مستقيماً، لتسهيل مهمّتها، وهكذا يختفي "السيّد الكبير"، الذي سينهض ثانية بكل تأكيد، ليعلن سطوته على السّيّد بلانك قبل مرور ساعات عدّة.

يجلس السّيّد بلانك على طرف السرير للمرّة الثانية، وتتكرّر العملية مع البنطال. وحين يجلس للمرّة الثالثة، تضع آنا الخفَّيْن في قَدَمَيْه، اليسرى أوّلاً، ثمّ اليمنى، وتشرع في عقد الشريط، القَدَم اليسرى أوّلاً، ثمّ اليمنى،

Tele: @Arab_Books

لتنهض بعد ذلك، وتجلس بجانبه على السرير، لكي تساعده على ارتداء القميص، أوّلاً مُدخلة ذراعه اليسرى في الكُمّ الأيسر، ثمّ اليمنى في الكُمّ الأيمن، وأخيراً تُزرّره من الأعلى إلى الأسفل، وخلال هذه العملية البطيئة المضنية، تكون أفكار السّيّد بلانك قد سرحتْ في مكان آخر، وقد عادتْ به ذاكرته إلى حجرة طفولته مع وايتي وأمّه، مُتذكّراً كيف كانت تفعل الأشياء نفسها له بالصبر المُحبّ ذاته، قبل سنوات طويلة، في بداية حياته.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الآن آنا قد رحلتْ. العربة الفولاذية اختفتْ، والباب أُوصِدَ، وها هو السّيّد بلانك وحيداً ثانية في الحجرة. الأسئلة التي رغب في طرحها عليها، حول الخزانة، وحول كلمة "الكونفدرالية"، وحول ما إذا كان الباب مُوصَداً من الخارج أم لا - لم يطرح شيئاً منها، وبالتالي فهو يجهل إلى حدّ كبير ما الذي يجري في هذا المكان، تماماً مثلما كان قبل وصول آنا. في الوقت الحالي، يجلس على طرف السرير الضّيّق، باسطاً راحتَي يَدَيْه على ركبَتَيْه، مُطرق الرأس، يُحملق في الأرض، ولكنْ، عمّا قريب، ما إن يحسّ بما يكفي من القوّة لذلك، سوف ينهض عن السرير، ويعود ثانية إلى المكتب، لكي يُلقي نظرة على كدسة الصور (إذا كان بمقدوره استجماع شجاعته لمواجهة تلك الوجوه ثانية)، ويواصل قراءة النصّ المُتعلّق بالرجل العالق في الحجرة في "ألتيما". غير أنه في الوقت الحالي لا يفعل شيئاً سوى الجلوس على السرير، والاشتياق إلى آنا، مُتمنّياً لو أنها ما تزال برفقته، لو أنه يستطيع أَخْذَها بين ذراعَيْه، واحتضانها.

ها هو الآن مجدّداً على قَدَمَيْه. يحاول جَرّ قَدَمَيْه نحو المنضدة، ولكنه ينسى أنه ما عاد ينتعل خفَّيْه، والنعل المطّاطي في خفِّه الرياضي يلتصق بالأرضيّة الخشب - بطريقة مفاجئة وغير متوقّعة، إلى درجة أن السّيّد بلانك يفقد توازنه، ويوشك على السقوط. اللعنة، يقول، اللعنة على هذا الحذاء الصغير الأبيض اللعين. يتوق إلى تبديل الحذاء الرياضي بالخفَّيْن

Tele: @Arab_Books

ثانية، ولكنّ الخفَّيْن أسودان، ولو انتعلهما، لما عاد أبيض بالكامل، وهو أمرٌ طلبتْه منه آنا بوضوح، وقوفاً عند طلب شخص يُدعى بيتر ستيلمان جونيور، أيّاً كان هذا الشخص.

يتخلّى السّيّد بلانك بالتالي عن السير المتثاقل الذي اعتاد عليه في الخفَّيْن، ويمضي نحو المنضدة بما يُشبه المشي العاديّ. ليست المشية الرشيقة التي يراها المرء لدى الشباب المُفعمين حيوية، بل مشية بطيئة متثاقلة، يرفع فيها السّيّد بلانك قَدَمَاً إنشاً أو اثنَيْن عن الأرض، ويدفع الرِّجْلَ المرتبطة بتلك القَدَم زهاء ستّة إنشات قَدَمَاً، ثمّ يهبط بأخمص الحذاء على الأرض. تتبع ذلك وقفة قصيرة، ثمّ يُكرِّر العملية نفسها بالقَدَم الأخرى. قد لا تكون مشاهدة ذلك بالجميلة، ولكنها ضرورية بالنسبة إليه، وقبل أن يمرّ وقت طويل، يجد نفسه واقفاً أمام المنضدة.

الكرسي قد دُفع إلى الداخل، وهو ما يعني أنه لكي يتمكّن من الجلوس، سيضطرّ السّيّد بلانك إلى إخراجه. وبفعله ذلك، يكتشف أخيراً أن المقعد مُزوَّد بعجلات، وبدلاً من أن يجرّه جرّاً مثلما كان يتوقّع، فإن المقعد ينزلق بسهولة دون أن يبذل أيّ جهد يُذكَر. يجلس السّيّد بلانك، مندهشاً من أنه لم يتعرّف هذه الخاصّيّة في الكرسي خلال زيارته الأولى إلى المنضدة. يضغط قَدَمَه على الأرض، ويقوم بدَفْعة صغيرة، وإذا به يعود، مُغطّياً مسافة ثلاث أو أربع أقدام. يعدّ ذلك اكتشافاً هامّاً، إذ ومهما كانت سارّة عملية هزّ الكرسي إلى الأمام والخلف والدوران به، فإن حقيقة أنه قابلٌ للتحريك في الغرفة ربمّا تنطوي على قيمة علاجيّة كبرى -كما على سبيل المثال عندما يحسّ بتعب في رجلَيْه، أو حين تهاجمه نوبة أخرى من الدوار. بدلاً من الاضطرار إلى الوقوف والمشي في مثل هذه الحالات، سيكون قادراً على استعمال الكرسيّ، لكي يتنقّل من مكان إلى آخر في وضعية

Tele: @Arab_Books

الجلوس، وبالتالي يدّخر قوّته لأمور أكثر إلحاحاً. تُشعره هذه الخاطرة بالراحة، ومع ذلك، بينما يرجع الكرسيّ إلى الخلف نحو المنضدة، يُعاوده فجأة ذلك الإحساس الساحق بالذنب الذي كان قد تبدّد خلال وجود آنا، وفي الوقت الذي يستغرقه للوصول إلى المنضدة، يكون قد فهم أن المنضدة نفسها مسؤولة عن هذه المشاعر القاهرة – ليس المكتب في حَدّ ذاته ربمّا، بل الصور الفوتوغرافية والأوراق المُكدّسة على سطحه، والتي بلا ريب تحتوي الجواب عن السؤال الذي يؤرقه. إنها مصدر عذابه، وعلى الرغم من أنه قد يكون أمراً بسيطاً العودة إلى السرير، وتجاهلها، فإنه يشعر بأنه مُجبرَ على مواصلة تحرّياته، مهما كانت هذه التّحرّيات مُعذِّبة مؤلمة.

يُحدّق بسطح الطاولة، ويلمح حشية ورق وقلم حبر كرويّ – أشياء لا يتذكّر أنها كانت هناك خلال زيارته السابقة للمكتب. لا يهمّ، يقول لنفسه، ومن دون أن يفكّر ثانية في الأمر، يحمل القلم بيمناه، ويفتح حشية الورق على الصفحة الأولى بيسراه. وحتّى لا ينسى ما شهده هذا اليوم من أحداث حتّى تلك اللحظة – ذلك أن السّيّد بلانك نَسَّاء بكل معنى الكلمة –فإنه يُدوِّن قائمة بالأسماء التالية:

جايمس ب. فلود

آنا

دافيد زيمر

بيتر ستيلمان جونيور

بيتر ستيلمان الأب

بعد أن يُنجز هذه المهمّة الصغيرة، يُقفل حشية الورق، ويضع القلم من

Tele: @Arab_Books

يده، ويدفعهما جانباً. ثمّ، مادّاً يده إلى الصفحات العليا على الكدسة التي إلى يساره، يكتشف أنها ضُمَّت إلى بعضها بمشبك، ربمّا يصل عددها الإجمالي إلى خمس وعشرين ورقة، وحين يضع الكدسة أمامه، يكتشف أيضاً أنه النصّ الذي كان يقرؤه قبل وصول آنا. يفترض أنه هو مَن شبك الأوراق معاً – لتسهيل قراءتها أكثر – ثمّ، مدركاً أن النصّ ليس طويلاً للغاية، يتساءل ما إذا كانت ستتسنّى له قراءته قبل أن يأتي جايمس بي فلود قارعاً الباب.

ينتقل إلى الفقرة الرابعة على الصفحة الثانية، ويشرع في القراءة:

طوال الأربعين يوماً الماضية، لم أتعرّض لأيّ ضَرْب، ولا أظهر الكولونيل أو أيّ من طاقم عمله وجهه لي. الشخص الوحيد الذي كنتُ أراه هو الملازم الذي يُوصل لي الطعام، ويبدّل دلو الغسل. حاولتُ التّصرُّف بطريقة متحضّرة معه، متوجّهاً له بتحية صغيرة حين يدخل، ولكنْ، من الجليّ أنه تلقّى الأوامر بالتزام الصمت، ولم أتمكّن مرّة من دَفْع هذا العملاق بالبزّة البنّيّة إلى التّلفُّظ بكلمة واحدة. ثمّ، قبل أقلّ من ساعة، حدث أمر استثنائيّ. فتح الملازم الباب، ودخل جنديان يافعان، يحملان منضدة خشبية وكرسيّاً مستقيم الظهر. وضعاهما في وسط الغرفة، ثمّ دخل الملازم، ووضع كدسة طويلة من الورق الفارغ على المنضدة مع محبرة وقلم.

مسموحٌ لكَ أن تكتب، قال.

أهذه طريقتكَ في إجراء محادثة؟ سألتْه، أم أنكَ تُملي عليّ أمراً؟

يقول الكولونيل إنه مسموحٌ لكَ الكتابة. يمكنكَ فَهْم ذلك على نحو ما تريد.

Tele: @Arab_Books

وماذا لو اخترتُ ألا أكتب؟

أنتَ حُرّ في فعل ما يطيب لكَ، لكنّ الكولونيل يقول إنه من غير المرجّح بالنسبة إلى رجل في مثل حالكَ أن يُفوِّت فرصة الدفاع عن نفسه كتابة.

أفترض أنه يزمع قراءة ما سأكتبه.

من المنطقيّ افتراض ذلك، أجل.

وهل سيُرسل ما أكتبه إلى العاصمة بعدئذ؟

لم يذكر شيئاً من نواياه. قال ببساطة إنه مسموحٌ لكَ الكتابة.

كم من الوقت أمامي؟

لم يُناقش هذا الأمر.

وماذا لو نفد منّي الورق؟

سوف تُمنَح ما تحتاج إليه من الحبر والورق. رغب الكولونيل في إعلامكَ بذلك.

أُشكُرِ الكولونيلَ نيابةً عنّي، وقل له إنني أفهم ما الذي يفعله. إنه يمنحني الفرصة، لكي أكذب حول ما حصل، لكي أُنقذ عنقي. وهذا طيّب جداً منه. رجاء أخبرْه أنني أُقدِّر هذه البادرة.

سوف أُوصلُ رسالتكَ للكولونيل.

حسنٌ. الآن دعني وشأني. إذا كان يريدني أن أكتب، فسأفعل، ولكنْ، لكي أفعل ذلك، يجب أن أكون وحيداً.

كنتُ أخمِّن بالطبع. الحقيقة هي أنني لا أملك أية فكرة عن السبب

Tele: @Arab_Books

الذي حدا بالكولونيل للقيام بما قام به. أُفضِّل أن أفكّر أنه بدأ يُشفق عليّ، ولكنني أشكّ بأن يكون الأمر بمثل هذه البساطة. الكولونيل دي فيغا أبعد ما يكون عن التعاطف، وإذا أراد فجأة التخفيف من بُؤس حالي، فإن مَنْحي قَلَماً هو طريقة غريبة لفِعْل ذلك. مخطوط مليء بالأكاذيب سيكون جيّداً له، ولكنه لا يعقل أن يحسب أنني سأكون مستعدّاً لتغيير شهادتي في هذا الوقت المتأخّر. لقد حاول من قبل دَفْعي إلى الاعتراف بالذنب، ولمَ أفعل الآن ما لم أفعله، بينما كنتُ أتعرّض لضَرْب مميت؟ ما يؤول إليه الأمر هو مسألة حَذَر، على ما أظنّ، طريقة لإعداد النَّفْس لكلّ ما يمكن أن يقع تالياً. ثمّة كُثُر يعرفون أنني هنا، وبالتالي لا يمكنه إعدامي دون محاكمة. وفي المقابل، فإن المحاكمة أمرٌ يجب تجنُّبه بأيّ ثمن – إذ ما إن تنتقل القضية إلى المحكمة، حتّى تشيع قصّتي بين الناس. وبسماحه لي بكتابة قصّتي، فإنه يجمع الدليل، الدليل القاطع الذي من شأنه أن يُبرِّر كلّ ما يعتزم القيام به ضدّي. فلنفترض، على سبيل المثال، أنه مضى قدماً، وأمر بإعدامي رَمْياً بالرصاص دون محاكمة. ما إن تعرف القيادة العسكرية في العاصمة بموتي حتّى تصبح مُجبَرَة قانوناً على فَتْح تحقيق رسميّ، ولكنْ، عند هذه المرحلة، لن يكون عليه سوى إعطائهم الأوراق التي كتبتُها، وسيكون ذلك كفيلاً بإعفائه من المسؤولية. لا ريب في أنه سيُكافَأ بميدالية لحَلّه المعضلة بهذه البراعة. بل ربّما يكون قد راسلهم أساساً حول ذلك، وأنني أحمل الآن هذا القلم، لأنهم أمروه بذلك. في الظروف الطبيعية، يستغرق الأمر ثلاثة أسابيع حتّى تصل الرسالة إلى العاصمة من ألتيما. ولو كنتُ هنا منذ شهر ونصف الشهر، فربّما يكون قد تلقّى الجواب اليوم. فليُدوِّن الخائن قصّته على الورق، قالوا على الأرجح، ثمّ سنكون أحراراً في التّخلُّص منه على النحو الذي نريده.

هذا أحد الاحتمالات. إلا أنني قد أكون مبالغاً في تقدير أهمّيّتي، وقد

Tele: @Arab_Books

يكون الكولونيل يلاعبني، لا أكثر ولا أقلّ. مَنْ يعلم ما إذا كان قد قرَّر الترفيه عن نفسه بعرض عذاباتي؟ قليلة هي التسالي في مدينة مثل ألتيما، وما لم يكن المرء مُتمتّعاً بما يكفي من الخيال للترفيه عن نفسه، فقد يكون عرضة لفقدان عقله من شدّة السأم. أستطيع تخيُّل الكولونيل وهو يقرأ كلماتي لعشيقته، وقد استوى كلاهما في السرير ليلاً، وأخذا يضحكان من عباراتي الحقيرة الرّثّة. قد يكون هذا مُسلّياً، أليس كذلك؟ ترفيه مُرحَّب به، مصدر رهيب للغبطة. إذا تمكّنتُ من الترفيه عنه، فربّما يسمح لي بمواصلة الكتابة إلى الأبد، وشيئاً فشيئاً، أتحوّل إلى مُهرّجه الشخصيّ، البلياتشو الخاصّ به، ولكنْ، بدلاً من أن أقع على مؤخّرتي، أمنحه النتيجة نفسها بالحبر المتدفّق منّي إلى ما لا نهاية. وحتّى لو طاوله السأم من قصصي، وأمر بقَتْلي، فإن المخطوط سيبقى، أليس كذلك؟ سيكون بمثابة نصبه التذكاري – جمجمة أخرى يضيفها إلى مجموعته.

ومع ذلك، يصعب عليّ كَبْت الفرح الذي يجتاحني في هذه اللحظات. أيّاً كانت دوافع الكولونيل دي فيغا، أيّاً كانت الأفخاخ والمهانات التي يدَّخرها لي، فيمكنني القول بصدق أنني أكثر سعادة الآن ممّا في أيّ وقت منذ اعتقالي. إنني جالس إلى المنضدة، مصيخاً السَّمْع إلى القلم وهو يخربش على سطح الورق. أتوقّف. أغمّس الدواة بالمحبرة، ثمّ أراقب الأشكال السود وهي تتشكّل مع حركة يدَي من اليسار إلى اليمين. أصل إلى نهاية السطر، فأنزل إلى سطر جديد، وبينما تبهتُ الأشكال، أتوقّف مرّة أخرى، وأغمّس الدواة ثانية في الحبر. وهكذا يمضي الأمر وأنا أشقّ طريقي نزولاً على الصفحة، وكلّ مجموعة من العلامات تُشكِّل كلمة، وكلّ كلمة هي صوت في رأسي، وفي كلّ مرّة، أكتب فيها كلمة أخرى، أسمع صدى صوتي ثانية، وإن كانت شفتاي مطبقتَيْن.

Tele: @Arab_Books

مباشرة بعد إيصاد الملازم الباب، حملتُ المنضدة إلى الجدار الغربي، واضعاً إيّاها تحت النافذة مباشرة. ثمّ عدتُ إلى الكرسيّ، ووضعتُه فوق المنضدة، وقمتُ بشقل نفسي– أوّلاً إلى المنضدة، ثمّ فوق الكرسيّ. أردتُ أن أرى إذا كنتُ أستطيع وَضْعَ أصابعي على قضبان النافذة، يحدوني الأمل بأن أتمكّن من رَفْع نفسي والتّشبُّث هناك لأطول وقت ممكن حتّى أتمكّن من لمح العالم الخارجي. إلا أنه مهما حاولتُ، فإن أناملي قصَّرتْ عن بلوغ الهدف. وغير راغب في التخلّي عن المحاولة، نضوتُ قميصي، وحاولتُ التطويح به إلى الأعلى نحو القضبان، ظنّاً منّي بأنني قد أتمكّن من شَبْكه بها، ثمّ أتمكّن من شَقْل نفسي مستعيناً بالكمَّيْن. لكنّ القميص لم يكن طويلاً بما فيه الكفاية، ومن دون أداة ما تمكّنني من إدخال القميص عبر القضبان المعدنية (قضيب أو ذراع مكنسة، وحتّى غصين صغير)، فإنني لن أتمكّن إلا من التلويح بالقميص، وكأنه راية استسلام بيضاء.

في نهاية المطاف، ربّما يحسن بي التخلّي عن مثل هذه الأحلام. فإذا ما عجزتُ عن قضاء أيّامي ناظراً من النافذة، فسأضطرّ حينئذ إلى التركيز على المهمّة الملقاة على عاتقي. من الضروري أن أكفَّ عن القلق بشأن الكولونيل، وأن أتخفَّف من الهواجس، وأُدوِّن الحقائق كما أعرفها. أيّاً كان ما يختار فعْله بالتقرير، فهذا شأنه، وليس ثمّة ما يسعني فعْله للتأثير على قراره. الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به هو كتابة قصّتي. وأمام حقيقة هذه القصّة، فإنها ستكون مهمّة عسيرة بما فيه الكفاية.

Tele: @Arab_Books

يتوقّف السّيّد بلانك عن القراءة، لكي يريح عينَيْه، مغلغلاً أصابعه في شعره، ومُتفكِّراً بمعاني الكلمات التي قرأها توّاً. حين يفكّر في إخفاق الراوي في محاولة التّسلّق والنَّظَر من النافذة، يتذكَّر فجأة نافذته هو، أو بكلام أدقّ، يتذكّر الستارة المُسدَلَة على النافذة، والآن بما أنه لديه الوسيلة للانتقال إلى هناك دون الحاجة إلى الوقوف، فإنه يُقرِّر أنها اللحظة المناسبة لرَفْع الستارة واختلاس النظر إلى الخارج. إذا تمكّن من رؤية محيطه، فلربّما سيستعيد شيئاً من ذكرياته، ممّا سيُعينه على تفسير سبب وجوده في هذه الحجرة؛ ربّما مجرّد لمح شجرة أو طنف عمارة ما أو بقعة عشوائية من السماء، سوف تُساعده على تكوين فكرة عن الورطة التي هو فيها. وبالتالي يتخلّى وقتيّاً عن قراءة النصّ، لينتقل إلى الجدار الذي يضمّ النافذة. حين يبلغ وجهتَهُ، يمدّ يده اليمنى، ويمُسك بأسفل الستارة، ويشدُّها سريعاً، أملاً منه بأن ذلك سيجعلها ترتفع إلى الأعلى، بسبب ضَغْطه على النابض. لكنها ستارة قديمة، وقد فَقَدَت الكثير من طاقتها على الارتداد، وبدلاً من أن ترتفع كاشفة النافذة خلفها، فإنها ترتخي بضعة إنشات إلى أسفل أسكفة النافذة. وإذ يشعر بالإحباط جرّاء محاولته الخرقاء، يشدّ السّيّد بلانك بقوّة أكبر، ولوقت أطول، وفجأة تُقرِّر الستارة أن تتصرّف كستارة حقيقية، وترتفع إلى أعلى النافذة.

تخيّلوا مدى خيبة أمل السّيّد بلانك حين يُلقي نَظَرَه من النافذة، ليرى

Tele: @Arab_Books

أن مصراعَيْها مغلَقَين، ممّا يقضي على أيّة فرصة للنَّظَر إلى الخارج، وتبيُّن مكانه. وليست هذه بالدرفات الخشبية الكلاسيكية التي تنطوي على قدد مُتحرِّكة، تُتيح تسلُّل شيء من النور؛ بل إنهما مصراعان معدنيان صناعيّان، لا فرجات فيهما من أيّ نوع، وقد طُليتا بلون رمادي بليد، وظهرتْ عليهما بقعٌ من الصدأ التي بدأتْ تحتّ سطحهما. ما إن يفيق السّيّد بلانك من صدمته حتّى يفهم أن الوضع ليس بالسوء الذي افترضَهُ. فالمصراعان يُوصَدان من الداخل، ولكي يضع يدَيْه على المزلاج، ليس عليه سوى رَفْع إطار الألواح الزجاجية إلى الحدّ الأقصى. وما إن يحلّ الترباس، حتّى يغدو قادراً على فَتْح المصراعَيْن، ورؤية العالم الخارجي المحيط به. يعلم أنه سيكون عليه الوقوف عن كرسيّه، لكي يكسب قوّة الدَّفْع الضرورية، ولكنه ثمنٌ بخسٌ، فيقوم بشَقْل جسده وقوفاً، ويتأكّد من أن النافذة غير مُوصَدَة (وهي كذلك)، ويضع يدَيْه على القضيب الأعلى في إطار النافذة، ويتوقّف لبرهة، لكي يحضّر نفسه للجهد الذي ينتظره، ثمّ يقوم بالضغط بكلّ ما أُوتي من قوّة. وبصورة غير متوقّعة، فإن الإطار لا يتزحزح. يتوقّف السّيّد بلانك لالتقاط أنفاسه، ثمّ يحاول ثانية، مع النتيجة السلبية ذاتها. يظنّ أن النافذة عالقة لسبب ما - إمّا بسبب زيادة الرطوبة، أو بسبب طلاء زائد، أدّى إلى التصاق النصفَيْن العلوي والسفلي من النافذة ببعضهما بعض - لكنه، وبينما يقوم بفَحْص القضيب العلويّ من إطار النافذة عن كثب، يكتشف شيئاً، فاتتْه ملاحظته سابقاً. مسماران كبيران، بالكاد مَرئيَّيْن، بسبب الطلاء أعلاهما، قد غُرزا في القضيب. مسمار ضخم إلى اليسار، وآخر إل اليمين، ولأن السّيّد بلانك يعرف أنه يستحيل عليه اقتلاع المسمارَيْن من الخشب، فيستحيل عليه فَتْح النافذة - ليس الآن، يدرك، ولا لاحقاً، ولا في أيّ ظرف كان.

حصل أخيراً على البرهان. أحدهم، بل ربمّا كُثُر، قد حبسوا السّيّد

Tele: @Arab_Books

بلانك في هذه الحجرة، وهو أو هم يحتجزونه سجيناً رغماً عنه. على الأقلّ، هذا ما يستخلصه من البرهان الذي وفَّره المسماران، ولكنْ، مهما كان مبرماً هذا البرهان، فلا يزال ثمّة سؤال مُتعلّق بالباب، وحتّى يحسم السّيّد بلانك ما إذا كان الباب مُوصَداً من الخارج، أو ما إذا كان مُوصَداً على الإطلاق، فإن الاستنتاج الذي توصّل إليه، يمكن أن يحتمل الخطأ. إذا كان يفكّر بوضوح، فإن خطوته التالية ستكون أن يجرّ نفسه على الكرسيّ إلى الباب، ويتحرّى حقيقة الأمر فوراً. ولكنه لا يبارح مكانه عند النافذة، لسبب بسيط، وهو أنه خائف، خائف جداً ممّا قد يُنبئه به الباب، إلى درجة أنه لا يستطيع حَمْل نفسه على المخاطرة لمواجهة الحقيقة. عوضاً عن ذلك، يُعاود الجلوس في كرسيّه، ويقرّر تحطيم النافذة. إذ سواء أكان مسجوناً أم لا، فإنه أكثر من مُستقتِل لمعرفة مكانه. يفكّر بالرجل في النصّ المطبوع الذي كان يقرؤه، ثمّ يتساءل ما إذا كان هو الآخر سيُقاد إلى الخارج، ويُعدَم رَمْياً بالرصاص. أو، بصورة أكثر شُؤماً في مخيّلته، إن لم يكن سيُقتَل هنا في هذه الغرفة، يُخنَق حتّى الموت على يدَي سفّاح ما.

ليس من أدوات حادّة في الحجرة. لا مَطَارق على سبيل المثال، ولا مَقَابض مكانس أو مجارف، لا بلطات ولا مدقّات، وبالتالي حتّى قبل أن يبدأ، فإن السّيّد بلانك يعرف أن جهوده ستذهب سُدى. ومع ذلك، يقوم بمحاولة، إذ إنه ليس خائفاً فحسب، بل غاضباً أيضاً، وفي خضمّ غضبه يقوم بخَلْع خفِّه الرياضيّ الأيمن، ويمُسك طرفه بقوّة بيمناه، ويبدأ بضَرْب زجاج النافذة بكَعْبه. نافذة عادية كانت لتتحطّم تحت وطأة مثل هذا الضَّرْب، ولكنها نافذة مضاعفة الألواح من أقوى نوعيّة، وبالكاد تهتزّ، بينما يضربها الشيخ المسنّ بسلاحه الواهي المُكوَّن من المطّاط والقماش. بعد واحد وعشرين ضربة متتالية، يستسلم السّيّد بلانك، ويسقط الحذاء أرضاً. الآن، وقد بات غاضباً ومُحبَطاً في آن، يقوم بضَرْب الزجاج بيده مرّات

Tele: @Arab_Books

عدّة، غير راغب بأن تكون للنافذة الكلمة الفَصْل، ولكنّ اللحم والعظام ليسا بأكثر فعاليّة في تحطيم اللوح من الحذاء. يتساءل ما إذا كان ضَرْب الزجاج برأسه قد يُؤتي ثماره، ولكنْ، وعلى الرغم من أن قدرته على التفكير ليست في أفضل أحوالها، فإنه ما يزال يتمتّع بما يكفي من الحصافة، لكي يفهم حماقة إنزال مثل هذه الأذية بنفسه في ما يبدو دون ريب قضية خاسرة. وبالتالي، بقلب مُثقَل، يرتمي ثانية على كرسيّه، ويُغمض عينَيْه، غير خائف فحسب، ولا غاضب فحسب، بل مُتهالك أيضاً.

لحظة إغماضه عينَيْه، يرى الأطياف وهي تمشي في رأسه. إنه موكب طويل قاتم مُكوّن من عشرات، إن لم يكن مئات الأطياف، من الرجال والنساء معاً، والأطفال والمسنِّين، وفي حين أن بعضهم قصار، فبعضهم الآخر طوال، وبينما بعضهم سمين، فبعضهم الآخر نحيف، وبينما يبذل السّيّد بلانك قصارى جهده لسماع أصواتهم، فإنه لا يسمع وَقْع أقدامهم فحسب، بل شيئاً يبدو بالنسبة إليه شبيهاً بالأنين؛ أنين جماعيّ بالكاد مسموع، يرتفع من ظهرانيهم. أين هم وإلى أين يتّجهون، لا يمكنه القول، ولكنْ، يبدو أنهم يهيمون عبر مرج ما، في مكان ما، في أرض خراب من العشب الضاري والتربة الجرداء، وبسبب الظلمة الدامسة، ولأن كل واحد منهم يمضي قدماً وهو مُطرق الرأس، فإنه لا يستطيّع تعرُّف وجه أيّ منهم. كلّ ما يعرفه هو أن مجرّد لمح هذه الأطياف يملأ نفسه رهبة، ومرّة أخرى، يسيطر عليه شعور جارف بالذنب. يُخمِّن أن هؤلاء الناس ليسوا إلا الذين أرسلهم في مهمّات عدّة على مرّ السنين، وكما الحال مع آنا، فربمّا بعضهم أو الكثير منهم، أو جميعهم لم يبلوا بلاء حسناً، إلى درجة تعرُّضهم لعذابات لا تُطاق و/ أو للموت.

لا يسع السّيّد بلانك التّيقُّن من شيء، ولكنْ، يصدمه احتمال أنّ تكون

Tele: @Arab_Books

ثمّة صلة ما بين هذه الأطياف والصور الفوتوغرافية على المنضدة. ماذا لو كانت تلك صور الأناس أنفسهم الذين لم يستطع تبيُّن وجوههم في المشهد الذي يتكرَّر في رأسه؟ إذا كانت الحال كذلك، فالأشباح الذين يراهم ليسوا أطيافاً، بقدر ما أنهم ذكريات، ذكريات عن أناس حقيقيّين؛ إذ متى كانت آخر مرّة التقط أحدٌ صورة شخص غير موجود؟ يعرف السّيّد بلانك أن ليس هنالك ما يدعم نظريّته هذه، وأنه مجرّد رَجْم بالغيب بعيد الاحتمال، ولكنْ، لابدّ من سبب ما، يقول لنفسه، قضية ما، مبدأ ما يُفسِّر ما يجري له، يُفسِّر حقيقية أنه في هذه الحجرة مع هذه الصور الفوتوغرافية والأربع أكداس من المخطوطات، ولمَ لا يتحرّى أكثر، ليتبيَّن إن كان ثمّة أيّ حقيقة لهذا التخمين البعيد عن المنطق.

ناسياً أمر المسمارَيْن، وناسياً أمر الباب، وما إذا كان مُوصَداً من الخارج أم لا، يجرّ السّيّد بلانك نفسه إلى المنضدة، ويحمل الصور الفوتوغرافية، ثمّ يُعاود وضعها أمامه مباشرة. آنا في الأعلى بالطبع، ويمضي بضع دقائق ناظراً إليها ثانية، مُتمعِّناً في وجهها اليافع المُفعَم تعاسة وجمالاً في آنٍ معاً، مُحدّقاً عميقاً في نظرات عينَيْها القاتمتَيْن الضاريتَيْن. لا، يقول لنفسه، لم نكن متزوِّجَيْن يوماً. زوجها كان رجلاً يُدعى دافيد زيمر، والآن دافيد زيمر هذا مُتوفىّ.

يضع صورة آنا جانباً، وينظر إلى الصورة التالية. إنها امرأة أخرى، ربّما في منتصف العشرين، ولها شعر بنّيّ فاتح وعينان ثاقبتان. الجزء السفلي من جسدها غير ظاهر، بما أنها تقف على مدخل ما يبدو شقّة نيويوركية والباب منفرج قليلاً، وكأنها قد فتحتْه للتّوّ، لترحّب بزائر ما، وعلى الرغم من النظرات الحذرة في عينَيْها، فإن زاوية فمها تنبس عن ابتسامة صغيرة. يحسّ السّيّد بلانك بوَخْز عابر من التّعرّف عليها، ولكنْ، بينما يكابد لِتذكُّر

Tele: @Arab_Books

اسمها، فإن اسماً لا يخطر بباله – ليس بعد عشرين ثانية، ولا بعد أربعين ثانية، ولا بعد دقيقة كاملة. أخْذاً في الاعتبار أنه تذكَّر اسم آنا بسرعة شديدة، فقد افترض أنه سيكون قادراً على فِعْل ذلك مع الآخرين. ولكن هذا، كما هو جليّ، ليس واقع الحال.

ينظر إلى عشر صور أخرى، حاصداً خيبة الأمل نفسها. شيخ على كرسيّ بعجلات، نحيل ورقيق كدوريّ، يضع نظّارات العميان السود. امرأة مُتجهِّمة تحمل شراباً بيد، وسيجارة بالأخرى، وترتدي ثوباً ضافياً من نمط العشرينيات من القرن العشرين، وقبّعة ناقوسيّة. رجل سمين بصورة مُخيفة أصلع تماماً، ويبرز السيجار من فمه. شابّة أخرى، صينية هذه المرّة، ترتدي ثوب رَقْص. رجل أسود الشعر مُشذَّب الشاربَيْن، مُتأنّق ببزّة ذات ذيل، ويعتمر قبّعة عالية. شابّ مضطجع على العشب فيما يبدو حديقة عامّة. رجل أكبر سنّاً، ربمّا في منتصف الخمسينيات، مُمدّد على كنبة رافعاً رجلَيْه فوق عدد من الوسائد. مُتشرّد مُلتح أعجف البنية، يجلس على رصيف محيطاً بذراعَيْه كلباً ضخماً. رجل أسود سمين، يجلس إلى طاولة حاملاً بيد خمس أوراق لعب، ورزمة من قطع البوكر أمامه.

مع كلّ فشل جديد، يزداد السّيّد بلانك يأساً وشكّاً في أن يؤاتيه الحظّ مع الصورة التالية، حتّى – مدمدماً شيئاً ما بصوت خفيض، لا تسمعه المسجِّلة - يتخلّى عن المحاولة، ويزيح الصور جانباً.

يتأرجح إلى الأمام والخلف لزهاء دقيقة، باذلاً قصارى جهده لاستعادة توازنه الذهني، ووضع الهزيمة وراءه. ثمّ، دون التفكير مرَّتَيْن بالأمر، يحمل النصّ المطبوع، ويستأنف القراءة:

اسمي سيغموند غراف. وُلدتُ قبل واحد وأربعين عاماً في مدينة

Tele: @Arab_Books

لوز، وهي مركز لصناعة النسيج في شماليّ غربي إقليم "فو ليو"، وحتّى اعتقالي على يد الكولونيل دي فيغا، كنتُ أعمل في قسم المعلومات الديموغرافية في مكتب الشؤون الداخلية. حصلتُ في شبابي على دبلوم في الأدب الكلاسيكي من جامعة "أول سولز"، ثمّ خدمتُ كضابط في المخابرات العسكرية خلال الحروب الحدودية في جنوب غرب الكونفدرالية، وشاركتُ في المعركة التي أدَّتْ إلى توحيد مقاطعتَي بتيتليو ومرفاي. وقد سُرِّحتُ بشرف برتبة ملازم، وحصلتُ على ميدالية الخدمة المميّزة لعملي في اعتراض رسائل العدوّ، وفكّ شيفرتها. لدى عودتي إلى العاصمة بعد تسريحي من الجيش، دخلتُ إلى الوزارة (المكتب) كمُنسِّق وباحث ميداني. ووقت مغادرتي الأراضي الغريبة، كنتُ عضواً في هيئة الأركان طوال اثنَي عشر عاماً. آخر منصب رسمي تقلَّدتُهُ كان نائب المدير العامّ.

شأني شأن جميع مواطني الكونفدرالية، نلتُ نصيبي من المعاناة، وشهدتُ الكثير من العنف والاضطراب، وحملتُ ندوب الخسارة على روحي. لم أكن قد بلغتُ الرابعة عشرة من عمري حين أدّتْ أعمال الشغب في أكاديمية سانتكوس في بوشامب إلى اندلاع "حروب اللغات الخاطئة"، وبعد شهرَيْن من الغزو، رأيتُ أمّي وشقيقي الأصغر يحترقان حتّى الموت خلال نهب لوز. كنتُ ووالدي من بين السبعة آلاف مهاجر إلى إقليم نيو ولت المجاور. وقد امتدّت الرحلة زهاء ستّمئة ميل، واستغرقتْنا أزيدَ من شهرَيْن، وبوقت وصولنا إلى وجهتنا، كان قد قضى ثلثنا نَحْبَهُم. خلال المئة ميل الأخيرة، كان المرض قد تمكّن من أبي، فبات شديد الوهن، واضطررتُ إلى حمله على ظهري، مُترنِّح الخُطى عبر الوحول وأمطار الشتاء حتّى وصلنا إلى ضواحي ناختبورغ. طوال ستّة أشهر تسوَّلنا في شوارع تلك المدينة الرمادية، لكي نحصل على ما يقيم أودَنا، وحين وجدنا الخلاص أخيراً عبر سلْفة من بعض الأقارب في الشمال، كنّا على شفير الموت

Tele: @Arab_Books

جوعاً. وقد تحسّنتْ حياتنا عقب ذلك، ولكنْ، مهما بلغ أبي من الازدهار خلال السنوات التي أعقبتْ ذلك، فإنه لم يتعافَ تماماً من شهور المعاناة تلك. حين وافتْه المَنيّة قبل عشر سنوات عن عمر ٥٦ عاماً، كانت تجاربه قد أشاختْه، إلى حدّ أنه بدا في السبعين من عمره.

وقد عرفتُ آلاماً أخرى. قبل عام ونصف العام، أرسلتْني الوزارة في رحلة استكشافية إلى المجتمعات المُستقلّة في إقليم تييرا بلانكا. بعد أقلّ من شهر من رحيلي، اكتسحت الكوليرا العاصمة. كُثُرٌ يشيرون الآن إلى هذا الوباء، باسم آفة التاريخ، وأَخْذَاً في الاعتبار أنه انتشر في الوقت الذي كانت ستبدأ فيه مراسم الوحدة الطويلة المخطّطة جيّداً، فيمكن للمرء أن يفهم أن يُنظَر إليه كعلامة مشؤومة، كحكم على جوهر الكونفدرالية، وهدفها نفسه. لستُ شخصياً مع هذا الرأي، ولكنّ حياتي الخاصّة مع ذلك قد تغيَّرتْ كُلّيّاً، بسبب هذا الوباء. منقطعاً عن كلّ أخبار المدينة، مضيتُ في عملي طوال الشهور الأربعة والنصف شهر التالية، مُتنقّلاً بين المجتمعات الجبلية النائية في الشمال، مواصلاً تحقيقاتي في المذاهب الدينية المُتعدّدة المتجذِّرة في تلك المنطقة. وحين عدتُ أخيراً في أغسطس، كانت الأزمة قد انتهت – ولكنْ، ليس قبل أن تختفي زوجتي وابنتي البالغة خمسة عشر عاماً. غالبية جيراننا في مقاطعة كلوسترهام إمّا نزحوا عن المدينة، وإمّا قضوا بالوباء، ولكنْ، بين أولئك الذين بقوا على قيد الحياة لم يتذكّر أحد أنه رآهما. البيت لم يمُسّ، ولم أستطع أن أجد في أيّ مكان فيه أيّ دليل على أن الوباء اخترق جدرانه. وقد أجريتُ بحثاً مستفيضاً في الغرف جميعها، ولكنْ، لم ينكشف لي أيّ سرٍّ حول كيف أو متى قد تكونان غادرتا البيت. لم يكن هناك ملابس أو مجوهرات مفقودة، ولا أشياء رُميَتْ على الأرض في عجالة الرحيل. كان البيت مثلما فارقتُه تماماً قبل خمسة أشهر، باستثناء أن زوجتي وابنتي ما عادتا فيه.

Tele: @Arab_Books

أمضيتُ أسابيع عدّة ممشّطاً المدينة بحثاً عن قرائن، تدلّني على مكانهما، مُتنقّلاً من يأس إلى يأس أكبر مع كلّ محاولة مخفقة للوصول إلى معلومات، من شأنها وَضْعي على الطريق السليم. بدأتُ بالتّكلُّم إلى الأصدقاء والزملاء، وما إن استنفدتُ حلقة المعارف (بمَنْ فيهم معارف زوجتي من الإناث، وأهل زملاء ابنتي في الصّفّ، والبقّالون والتّجّار في منطقتنا)، بدأتُ بالبحث بين الغرباء. مُتسلّحاً بصورة لزوجتي وآخر لابنتي، سألتُ عدداً لا يُحصى من الأطبّاء والممرّضات والمتطوّعين الذين عملوا في المشافي الميدانية، وفي الفصول الدراسية التي خُصِّصَت للمُصابين، ولكنْ، من بين مئات الناس الذين نظروا إلى الصورَتَيْن، لم يتعرّف أحد وجهَيْهما. وفي نهاية المطاف، لم يعد أمامي سوى استنتاج واحد، وهو أنهما قد تُوفّيتا في الوباء. وأنهما، بين آلاف الضحايا الآخرين، دُفنتا في المقابر الجماعية في فياتيكوم بلوف، وهو مَدفن الموتى المجهولين.

لا أذكر هذه الأشياء لاستجرار أيّ عطف عليّ. لا أحد مضطّر لأن يأسف لحالي، ولا أن يُقدِّم الأعذار على الأخطاء التي اقترفتُها بعد هذه الأحداث. أنا إنسان، ولستُ ملاكاً، وإذا كان الأسى الذي استولى عليّ قد شوّش رؤيتي، وأدّى إلى بعض السقطات، فإن هذا لا يجدر به أن يُلقي أيّ شكّ على صِدْق حكايتي. قبل أن يحاول أحد أن يُجرّدني من الصِّدْقيّة من خلال الإشارة إلى تلك العلامات السود في سجلّي، فإنني سوف أعترف بذنبي، وبكل انفتاح للعالم. هذه أزمنة خؤونة، وأعرف مدى سهولة تشويه الحقائق بكلمة واحدة، تهمس للأذن الخطأ. اطعن في شخصية رجل، وكل شيء يفعله هذا الرجل يبدو خَفياً، مشكوكاً به، مزيّفاً، وله دوافع مزدوجة. في حالتي، فإن العيوب المطروحة نبعتْ من الألم، لا الحقد؛ من الارتباك، لا المكر. أضعتُ طريقي، وطوال أشهر، توسّلتُ العزاء في قوّة النسيان

Tele: @Arab_Books

التي تُوفّرها الكحول. معظم الليالي كنتُ أشرب وحيداً، جالساً في عتمة داري الفارغة، ولكنّ بعض الليالي كانت أسوأ من غيرها.

كلّما واجهتْني إحدى هذه المنعطفات السّيّئة، تبدأ أفكاري بالتنكيد عليّ، وسرعان ما أجدني أختنق بأنفاسي. يمتلئ رأسي بصور زوجتي وابنتي، ومرّة بعد مرّة، أرى جسدَيْهما الملطَّخَيْن بالطين، وهما يرميان إلى باطن الأرض، ومرّة بعد مرّة، أرى أطرافهما العارية وهي تتشابك مع أطراف جثث أخرى في الحفرة، وفجأة تغدو ظُلمة البيت لا تُطاق. فأقصد الأمكنة العامة أملاً بكَسْر سطوة هذه الصور بجلبة الحشود وضوضائها، مُتنقّلاً بين الحانات والأندية الليلية، وكان في أحد هذه الأمكنة أنني اقترفتُ أكثر فعْلة أضرَّتْ بي، وبسُمعتي. وقع ذلك ذات ليلة جمعة من شهر نوفمبر عندما بادر رجل يُدعى جيلز ماكنوتون إلى العراك معي في أوبيرج دي فان. وادّعى ماكنوتون أنني كنتُ البادئ بالهجوم، بيد أن أحد عشر شاهداً شهدوا بالعكس في المحكمة، فبُرِّئتُ من التُّهم كافّة. لكنه كان مجرّد نَصْر صغير، ذلك أن الحقيقة بقيتْ أنني كسرتُ ذراع الرجل، وحطّمتُ أنفه، وما كنتُ لأردّ بمثل هذه الحدّة، لو لم أكن أعاقر الخمرة بتلك الشراسة. وجدَتْني هيئة المحلّفين بريئاً، وعَدَدْتُ أنني تصرّفتُ من باب الدفاع المشروع عن النّفس، لكنّ ذلك لم يزل وصمة المحاكمة نفسها – ولا فضيحة اكتشاف أن عضواً مهماً في مكتب الشؤون الداخلية قد تورَّط في شجار دمويّ في خمّارة. في غضون ساعات بُعيد الحكم، بدأت الشائعات بأن مسؤولين في المكتب قد رشوا بعض أعضاء هيئة المحلّفين، لكي يُصوّتوا لصالحي. لا علْمَ لي بأيّ صفقات فاسدة من هذا القبيل، ولكنني أميل إلى عَدّ تلك الاتّهامات مجرّد نميمة. ما أعلمه علْم اليقين هو أنني لم أرَ السّيّد ماكنوتون قبل تلك الليلة. وهو في المقابل كان يعرف عنّي ما يكفي لكي يناديني بالاسم، وحين اقترب من منضدتي، وبدأ بالتّكلُّم على زوجتي، مُوحياً أن

Tele: @Arab_Books

لديه معلومات سرّيّة من شأنها المساعدة على حلّ لغز اختفائها، طالبتُهُ بأن يرحل. كان الرجل يسعى إلى المال، ونظرة واحدة إلى وجهه المُبقَّع المُعتلِّ أقنعتْني أنه محتال، انتهازيّ، عَلِمَ بمأساتي، وأراد التّربُّح منها. ومن الواضح أنه لم يحبّ صرفي له بتلك الطريقة اللامبالية. وبدلاً من أن يتراجع، جلس على الكرسيّ بجواري، وأمسك صديريّ بغضب. ثمّ قام بجَذْبي إلى الأمام حتّى كاد وجهانا يتلامسان، مال نحوي، وقال، ما الخطب، أيّها المواطن؟ أأنت خائف من الحقيقة؟ كانت عيناه تشعّان غضباً وازدراءً، ولأننا كنّا على ذلك القُرب الشديد، فإن تينكَ العينَيْن كانتا الوحيدَتَيْن ضمن نطاق نظريّ، وشعرتُ بالعدوانيّة تفيض من جسده، وبعد هنيهة واحدة، أحسستُ بها تنتقل مباشرة إليّ. وحينئذ قرَّرتُ مهاجمته. أجل، لقد كان هو المبادر إلى لمسي، ولكنْ، لحظة شروعي بالرّدّ، أردتُ أن أُلحق به أقصى درجة ممكنة من الأذى.

كانت تلك جريمتي. فلتفهمها كما شئتَ، ولكنْ، لا تسمح لذلك بالتأثير على قراءتكَ لهذا التقرير. المتاعب تقع للبشر جميعهم، وكلّ إنسان يتصالح مع هذا العالم على طريقته الخاصّة. إن كانت القوّة التي استعملتُها ضدّ ماكنوتون في تلك الليلة غير مُبرَّرة، فإن الخطأ الأعظم كان المتعة التي شعرتُ بها خلال استعمالي هذه القوّة. لا ألتمس الأعذار لأفعالي، ولكنْ، أخْذَاً في الاعتبار حالتي العقلية خلال تلك الفترة، فمن المدهش أن الحادثة في أوبيرج دي فان، كانت الوحيدة التي أذيتُ فيها شخصاً ما. كلّ الأذية الأخرى أنزلتُها بنفسي، وحتّى تعلّمتُ لجم رغبتي في الشرب (وهي في حقيقة الأمر كانت رغبة في الموت)، فقد كنتُ أخاطر باحتمال الهلاك التّامّ. ومع مرور الوقت، تمكّنتُ من الإمساك بزمام نفسي ثانية، غير أنني أعترف أنني ما عدتُ الرجل الذي كنتُهُ. ولو أنني استمررتُ في العيش، فهذا إلى حدّ كبير لأن عملي في المكتب منحَني سبباً للعيش.

Tele: @Arab_Books

وهذه هي المفارقة في محنتي. إنني مُتَّهم بكوني عدوّ الكونفدرالية، ومع ذلك خلال السنوات التسع عشرة التي عملتُ فيها في خدمة الكونفدرالية لم يكن ثمّة مَنْ هو أكثر ولاءً منّي لها. وسجلّي يُظهر ذلك، وأنا فخور، لأنني عشتُ في زمن، أتاح لي المشاركة في مثل هذا المجال الإنساني الرحب. عملي في هذا المجال علّمني أن أحبّ الحقيقة فوق كلّ شيء آخر، وعلى الرغم من أنني أوضحتُ اللبس المُتعلِّق بخطاياي وانتهاكاتي، لكنّ هذا لا يعني أنني يمكن أن أقبل الذنب على جريمة، لم أقترفها. أنا أؤمن بما تمُثّله الكونفدرالية، وقد دافعتُ عنها من كل قلبي بكلماتي وأفعالي ودمي. وإذا كانت الكونفدرالية قد انقلبتْ ضدّي، فإن هذا لا يمكن أن يعني سوى أن الكونفدرالية قد انقلبتْ على نفسها. لا أستطيع التّأمّل بالعيش أكثر بعد الآن، ولكنْ، في حال وقعتْ هذه الصفحات بين يد شخص يتمتّع بالشجاعة الكافية لكي يقرأها بالروحيّة التي كُتبتْ بها، فربمّا حينئذ لن تكون جريمة قَتْلي عملاً عَبَثياً بالمرّة.

Tele: @Arab_Books

بعيداً، ما وراء الحجرة، وما وراء المبنى الذي تقع فيه الحجرة، سمع السّيّد بلانك ثانية زعيق الطائر المكبوت ذاك. وقد شتَّتَ الصوتُ فكرَهُ، رفعَ رأسه عن الصفحة أمامه، مُتوقِّفاً عن قراءة اعترافات سيغموند غراف الحزينة. شعورٌ مباغتٌ بالضغط اجتاح معدته، وقبل أن يُقرِّر ما إذا كان هذا ألماً أم مجرّد انزعاج بسيط، فإن جهازه الهضميّ بوّق ضرطة قوية رنّانة. هوه هوه، يقول بصوت عال، ناخراً متعة. هوبالونغ كاسيدي(*) ينطلق ثانية! ثمّ ينقر ظهر الكرسيّ، ويغمض عينَيْه، ويبدأ بالاهتزاز، ليسقط سريعاً في واحدة من تلك الغيبوبات البليدة التي يُفرغ فيها رأسه من كلّ فكرة وشعور، وكل صلة بذاته. عالقاً على هذا النحو في غيبوبته الزاحفة، فإن السّيّد بلانك يغيب، أو على الأقلّ، ينقطع وَقْتيّاً عن محيطه، وهو ما يعني أنه لا يسمع اليد التي بدأتْ تقرع البابَ. والأسوأ من ذلك أنه لا يسمع الباب وهو يُفتَح، وبالتالي، ومع أن أحدهم قد دخل الغرفة، فإنه ما يزال يجهل ما إذا كان الباب مُوصَدَاً من الخارج أم لا. أو عمّا قريب سيكون في غفلة من ذلك، ما إن يفيق من إغماءته.

أحدهم يربّت كتفه، ولكنْ، قبل أن يتمكّن من فَتْح عينَيْه ويدور بكرسيّه ليرى مَنْ هو، فإن هذا الشخص يكون قد شرع بالكلام. ومن نبرة صوته،

(*) Hopalong Cassidy: شخصية كاوبوي روائية مُتخيّلة، ابتكرها كلارنس مالفورد في العام ١٩٠٤.

Tele: @Arab_Books

يُدرك السّيّد بلانك فوراً أنه رجل، ولكنه مشدوه من حقيقة أنه يُكلّمه بما يبدو شبيهاً بلكنة كوكنيّة(*).

عذراً، سيّد بلانك، يقول الرجل. لقد قرعتُ وقرعتُ البابَ، وحين لم تفتح، فكّرتُ بالدخول والاطمئنان إلى عدم وقوع خَطْب ما.

الآن يدور السّيّد بلانك بكرسيّه، ويلقي نظرة عن كَثَب نحو زائره. يبدو الرجل في بداية عقده الخامس، وقد صفَّف شعره جيّداً، وله شارب بنّيّ صغير، تبرز منه بضع شعيرات رماديّة. ليس بالقصير، ولا الطويل، يُحدّث السّيّد بلانك نفسه، ولكنه أقرب إلى القِصَر من الطُّول، ومن وقفته المنتصبة الصارمة ببزّته التويديّة يبدو رجلاً عسكرياً، أو ربمّا موظّفاً حكومياً من مرتبة أدنى.

ومَنْ تكون أنتَ؟ يسأل السّيّد بلانك.

فلود، سيّدي. اسمي الأوّل جايمس، والأوسط باتريك. جايمس ب. فلود. ألا تَذكُرُني؟

بصورة ضبابية، ضبابية فحسب.

أنا الشرطيّ السابق.

آه. فلود الشرطي السابق. أخبرتَني بأنكَ ستزورني، أليس كذلك؟

أجل، سيّدي. بالضبط، سيّدي. ولهذا أنا هنا. إنني أزوركَ الآن.

يطوف السّيّد بلانك بنَظَره في الحجرة، باحثاً عن كرسيّ، ليجلس عليه ضيفه، ولكنْ، يبدو أن الكرسيّ الوحيد المتوافر هو ذلك الذي يحتلّه بنفسه.

(*) Cockney أحد سكّان منطقة كوكني شرق لندن، وهي لهجة الطبقة العاملة بصورة عامّة.

Tele: @Arab_Books

أمن خطب ما؟ يسأله فلود.

لا، لا. يجيب السّيّد بلانك. إنني أبحث عن كرسيّ فحسب.

أستطيع دوماً الجلوس على السرير، يجيب فلود، مشيراً نحو السرير. أو إذا رغبتَ، يمكننا الذهاب إلى الحديقة قبالة الطريق. ليس من نَقْص في المقاعد هناك.

يشير السّيّد بلانك إلى قَدَمه اليمنى، ويقول: إنني أفتقد فَرْدة حذاء. لا يمكنني الخروج بفَرْدة حذاء واحدة.

يلتفت فلود، ويُحدّد فوراً مكان فَرْدة الحذاء الرياضيّ البيضاء على الأرض تحت النافذة. هاك هي الثانية، سيّدي. يمكننا إعادتها إلى قَدَمكَ بهزّة ذيل قطّ؟

قطّ؟ عمّ تتكلّم؟

إنه مجرّد تعبير، سيّد بلانك، لم أقصد الإساءة. يصمتُ فلود هنيهة، ويُعاود النَّظَر إلى فَرْدة الحذاء على الأرض، ثمّ يقول: إذن، ما قولكَ؟ هل تنتعلَها؟ أم لا؟

يُطلق السّيّد بلانك تنهيدة طويلة متعبة. لا، يجيب، وقد شابَ صوتَه شيءٌ من السخرية، لا أريد انتعالها. لقد سئمتُ هذا الحذاء اللعين، وإن كنتُ راغباً في فعْل شيء، فهو خلع الفَرْدة الأخرى أيضاً.

ما إن يتلفّظ السّيّد بلانك بهذه الكلمات حتّى يتشجّع لإدراكه أن مثل هذا التّصرّف يقع في حدود ما هو مُحتمَل، أنه في هذه اللحظة البسيطة يمكنه أَخْذ زمام الأمور بيدَيْه. ودون لحظة تردُّد ينحني، وينزع فَرْدة الحذاء من قَدَمه اليسرى.

Tele: @Arab_Books

آه، هذا أفضل، يقول، رافعاً قَدَمَه ومُحرِّكاً أصابعه في الهواء. أفضل بكثير، وما أزال مرتدياً ملابسي البيض، أليس كذلك؟

بالطبع، يقول فلود، ما الهامّ جداً في هذا الأمر؟

ولا يهمّكَ، يقول السّيّد بلانك، طارداً سؤال فلود بإيماءة من يده، وكأنه غير مُهمّ. فقط اجلسْ على السرير، وأخبرني ماذا تريد، سيّد فلود.

المُحقِّق السابق من سكوتلانديارد ينسحب إلى طرف المرتبة، جالساً على جهة اليسار، لكي يقابل وجهُهُ وجهَ الشيخ الجالس على الكرسي مُديراً ظهره للمنضدة، على بُعْد ستّ أقدام تقريباً. يتنحنح فلود، وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة، ليبدأ بالكلام، ثمّ، بصوت خفيض مرتعش من شدّة القلق، يقول: إنه يتعلّق بالحلم، سيّدي.

الحلم؟ يسأله السّيّد بلانك، وقد أربكه كلام فلود. أيّ حلم؟

حلمي أنا، سيّد بلانك. ذلك الذي ذكرتَهُ في تقريركَ عن فانشاو.

مَنْ يكون فانشاو؟

ألا تذكر؟

لا، يُعلن السّيّد بلانك بصوت مرتفع، يخالطه انزعاج. لا، لا أذكر فانشاو. بالكاد، أذكر شيئاً. إنهم يضخّون الحبوب في جسدي، وتقريباً كلّ شيء اختفى الآن. معظم الوقت لا أعرف حتّى مَنْ أكون. وإن لم أكن قادراً على تذكُّر نفسي، فكيف لكَ أن تتوقّع منّي تذكُّر هذا ... هذا ...

فانشاو.

فانشاو ... ومَنْ بحَقّ الله يكون؟

Tele: @Arab_Books

إنه أحد عملائكَ، سيّدي.

أتعني أنه أحد مَنْ أرسلتَهم في مهمّات؟

مهمّة بالغة الخطورة.

وهل نجا؟

لا أحد يعرف على وجه اليقين، غير أن الرأي الغالب أنه ما عاد معنا.

مُتأوِّهاً بنعومة، يغطّي السّيّد بلانك وجهه بيدَيْه، ويهمس: واحد آخر من المعلونين.

عذراً، يُقاطعه فلود، لم أسمع ما قلتَ.

لا شيء، يجيب السّيّد بلانك بصوت أعلى. لم أقلْ شيئاً.

عند تلك المرحلة، تتوقّف المحادثة لبضع ثوان. يسود الصمت، وفي ذلك الصمت، يتخيّل السّيّد بلانك أنه يسمع زفيف الريح، ريح قوية تعصف في الشجر على مقربة من المكان، بل على مقربة شديدة، ولكنْ، ما إذا كانت هذه الريح حقيقية أم مُتوهّمة، لا يستطيع أن يعرف. طوال الوقت، تبقى عينا فلود شاخصتَيْن على وجه الشيخ. وحين يغدو الصمت لا يُطاق، يقوم أخيراً بمجازفة خجولة لمواصلة الحوار.

إذن؟ يقول.

إذن ماذا؟ يجيب السّيّد بلانك.

الحلم. أيمكننا التّكلُّم الآن على الحلم؟

وكيف نتكلّم على حلم رجل آخر، إنْ كنتُ لا أعرف ما هو هذا الحلم؟

Tele: @Arab_Books

هذه هي المشكلة بالضبط، سيّد بلانك، فأنا نفسي لا أذكره.

إذن، لا أستطيع خدمتكَ بشيء، صح؟ فلا أنا ولا أنت يعرف ماذا حصل في حلمكَ، ليس ثمّة ما نتكلّم بشأنه.

الأمر أعقدُ من ذلك.

أبداً، سيّد فلود، إنه شديد البساطة.

هذا فقط لأنكَ لا تتذكّر كتابتكَ التقرير. إذا ما استطعتَ التركيز الآن، أعني التركيز بجدّ، فلربّما استطعتَ تذكُّره.

أشكّ بذلك.

اسمعْ، في التقرير الذي كتبتَهُ عن فانشاو، ذكرتَ أنه مُؤلّف بضعة كُتُب غير منشورة. أحد هذه الكُتُب عنوانه "نفرلاند". لسوء الحظّ، باستثناء الخلوص إلى أن بعض الأحداث في الكتاب قد استُوحيَتْ من أحداث في حياة فانشاو، فإنكَ لا تذكر شيئاً عن موضوع الكتاب، عن حبْكته، لا شيء على الإطلاق. فقط نبذة خجولة – مكتوبة بين هلالَيْن – وتفيد بالتالي، وأقتبس هنا من الذاكرة: (منزل مونتاغ في الفصل السابع؛ حلم فلود في الفصل الثلاثين). والمغزى هنا، سيّد بلانك، هو أنه لابدّ من أنكَ قرأتَ رواية نفرلاند، وفي ذلك، فأنتَ واحد من قلّة قليلة، قرؤوا الكتاب في العالم، وأُقدِّر كثيراً، بل من صميم قلبي البائس، لو أنكَ تبذل جهداً، لكي تتذكّر مضمون ذلك الحلم.

من طريقة كلامكَ عليها، لابدّ من أن تكون نفرلاند رواية.

أجل، سيّدي، إنها عمل سَرْديّ.

وفانشاو استعملكَ كشخصية فيها؟

Tele: @Arab_Books

يبدو ذلك. ليس من أمر غريب في ذلك. ممّا أفهمه أن الكتّاب يفعلون ذلك طوال الوقت.

ربمّا يفعلون ذلك، ولكنني لا أفهم لماذا يشغلكَ الأمر إلى هذا الحَدّ. فالحلم لم يحدث حقّاً. ليس إلا كلمات على الورق، محض اختلاق. انسَ أمره. إنه ليس بالأمر المهمّ.

إنه مهمّ بالنسبة إليّ، سيّد بلانك. حياتي كلها تعتمد عليه. من دون ذلك الحلم، تغدو حياتي هباء منثوراً، بكلّ معنى الكلمة.

الشغف الذي يلفظ فيه الشرطي السابق، المُتحفِّظ عادة، كلماته هذه، وهو شغف نابع من يأس روحيّ عميق - يستوقف السّيّد بلانك، بوصفه ليس أقلّ من فظيع، وللمرّة الأولى منذ الكلمات الافتتاحية في هذا التقرير، ينفجر ضاحكاً. وكما قد يتوقّع المرء، يشعر فلود بالمهانة، إذ لا أحد يستمتع بأن تُداس مشاعره بهذه الطريقة الباردة، على الأقلّ، ليس شخصاً هشّاً مثل فلود في تلك اللحظات.

هذا يُثير امتعاضي، سيّد بلانك، يقول. لا حقّ لكَ بالضحك عليّ.

ربمّا لا، يقول السّيّد بلانك، ما إن تخمد نوبة الضحك في صدره، ولكنني لم أستطع مَنْع نفسي. أنت تأخذ نفسكَ كثيراً على مَحمل الجدّ فلود. هذا يجعلكَ تبدو سخيفاً.

ربمّا أكون سخيفاً، يقول فلود، والحنق يتعالى في صوته، لكنّك، سيّد بلانك، فظّ ... فظّ وغير مبال بآلام الآخرين. أنت تلعب بحيوات الناس، ولا تتحمّل مسؤولية أفعالكَ. لن أبقى جالساً هنا، وأُثقل كاهلكَ بمتاعبي، ولكنني ألومكَ على ما حدث لي. إنني ألومكَ بكلّ عمق، وأزدريكَ لذلك.

Tele: @Arab_Books

المتاعب؟ يقول السّيّد بلانك، مُرقِّقاً فجأة نبرة صوته، باذلاً قصارى جهده، كي يظهر بعض التعاطف. أيّ نوع من المتاعب؟

نوبات الصداع مثلاً. أن أُجبَر على التقاعد المبكر مثلاً. أن أُفلس مثلاً. ثمّ هناك قضية زوجتي، أو بالأحرى طليقتي، ناهيكَ عن الأولاد الذين ما عادوا يريدون أن تربطهم أيّة صلة بي. حياتي دُمِّرَت بالكامل، سيّد بلانك. أمشي في العالم كالشبح، وأحياناً أتساءل ما إذا كنتُ موجوداً. ما إذا كنتُ قد وُجدتُ يوماً.

وتظنّ أن معرفة ذلك الحلم ستحلّ كلّ شيء؟ هذا أمر مشكوك جدّاً به، كما تعلم.

الحلم هو فرصتي الوحيدة. إنه أشبه بجزء مفقود منّي، وما لم أجده، فلن أستعيد ذاتي ثانية.

لا أذكر فانشاو. لا أذكر قراءة تلك الرواية. لا أذكر كتابة التقرير. أتمنّى لو بوسعي مساعدتك فلود، ولكنّ العلاج الذي يعطونني إيّاه حوّل رأسي إلى كتلة من الحديد الصدئ.

حاولْ أن تتذكَّر. هذا كل ما أطلبه منكَ. حاولْ.

بينما يُحملق السّيّد بلانك في عينَي الشرطيّ السابق المُحطَّم، يلاحظ أن الدموع بدأتْ بالانهمار على وجنَتَيْه. الشقيّ المسكين، يقول السّيّد بلانك في سرِّه. للحظة أو اثنتَيْن يتفكّر في سؤال فلود مساعدته في تحديد موضع الخزانة، لأنه يتذكّر الآن أن فلود كان مَنْ ذَكَرَهَا سابقاً في الصباح عبر الهاتف، ولكنْ، في نهاية المطاف، وبعد وزن سيّئات الأمر وحسناته، يُقرِّر ألا يُقدم عليه. بدلاً من ذلك، يقول: أرجوكَ، سامحني، سيّد فلود. أنا آسف، لأنني ضحكتُ.

Tele: @Arab_Books

الآن فلود قد رحل، والسّيّد بلانك عاد وحيداً في الغرفة. بُعيد لقائهما المزعج، يشعر الشيخ بالغضب واعتلال المزاج، وبقسوة الافتراءات العدوانية التي تعرَّض لها. ومع ذلك، راغباً في عدم تفويت أيّة فرصة، ليُعزّز أكثر معرفته بأوضاعه الراهنة، يدور بكرسيّه حتّى يغدو بمواجهة المنضدة، ثمّ يتناول حشية الورق والقلم الكرويّ. لقد تشكّل لديه فَهْم كاف حتّى الآن، ليعرف أنه ما لم يُدوِّن ذلك فوراً، فإن الاسم سيطير من رأسه، ولا يريد أن يجازف بفقدانه. وبالتالي يفتح الحشية على الصفحة الأولى، ويُدوِّن مدخلاً جديداً إلى القائمة:

جايمس ب. فلود.

آنا.

دايفد زيمر.

بيتر ستيلمان جونيور.

بيتر ستيلمان الأب.

فانشاو.

ولدى كتابته اسم فانشاو، يتبادر إلى ذهنه أن اسماً آخر قد ذُكِر خلال زيارة فلود، اسم يرتبط بحلم فلود في الفصل الثلاثين من الكتاب، ولكنْ،

Tele: @Arab_Books

مهما حاول تذكُّر الاسم، فإنه يعجز عن ذلك. ثمّة شيء عن الفصل السابع، يُحدّث نفسه، وشيء عن بيت ما، وكلّ ما عدا ذلك فغائب عن ذهنه. رغم شعوره بالنَّكَد جرّاء هذا القصور في ذاكرته، فإنه يُقرِّر كتابة شيء ما، أملاً بأنه سيتذكّر الاسم مجدّداً في المستقبل. الآن القائمة باتتْ على النحو التالي:

جايمس ب. فلود.

آنا.

دافيد زيمر.

بيتر ستيلمان جونيور.

بيتر ستيلمان الأب.

فانشاو.

الرجل مع البيت.

بينما يضع السّيّد بلانك القلم من يده، تبدأ كلمة بالترداد في رأسه، ولهنيهات بعد ذلك، مع ارتجاع صدى الكلمة في داخله، يحسّ أنه على شفير اختراق حقيقيّ، نقطة تحوُّل جوهرية ستُساعده على توضيح شيء ما حول ما يُخبّئه له المستقبل. الكلمة هي "حديقة". يتذكّر الآن أنه بُعيد دخول فلود إلى الحجرة، اقترح عليه أن يجلسا في الحديقة المقابلة. في التقدير الأقلّ، فإن من شأن هذا أن يُناقض تيقُّن السّيّد بلانك قبل ذلك من أنه مُعتَقَل بين أربعة جدران، وممنوع عليه الخروج إلى العالم. ترتفع معنوياته بعض الشيء بهذه الفكرة، ولكنه يعرف أيضاً أنه حتّى لو سُمح له بالذهاب إلى الحديقة، فإن هذا لا يُثبت بالضرورة أنه حُرّ. ربّما زيارات كهذه ممكنة فقط في ظلّ مراقبة مُشدَّدة، وما إن يتذوّق السّيّد بلانك

Tele: @Arab_Books

جرعة ترحيبيّة من شعاع الشمس والهواء المنعش، حتّى يُقاد ثانية إلى الحجرة، حيث يُسجَن ثانية رغماً عنه. يجده أمراً مثيراً للشفقة ألا يكون حاضر الذهن، لكي يسأل فلود بشأن الحديقة – لكي يُقرِّر ما إذا كانت حديقة عامّة، على سبيل المثال، أم مجرّد منطقة حرجيّة أو عشبية، تنتمي إلى المبنى أو المؤسّسة أو المصحّ الذي يقيم فيه حالياً. وما يفوق ذلك أهمّيّة أنه يلاحظ، ربمّا للمرّة الألف خلال الساعات الماضية، أن الأمر يقوده مجدّداً إلى طبيعة الباب، وما إذا كان مُوصَداً من الخارج أم لا. يُغمض عينَيْه، ويحاول أن يتذكّر الأصوات التي سمعها بعد مغادرة فلود الحجرة. أكان صوت مزلاج يُقفَل؟ أم صوت مفتاح يدور في قفل أسطوانيّ؟ أم أنه ببساطة صوت تكّة ترباس؟ لا يستطيع السّيّد بلانك أن يتذكّر. لدى انتهاء المحادثة مع فلود، كان قد بات منزعجاً بشدّة من هذا الرجل الضئيل الثقيل الدّم وأنينه واتّهاماته، بحيث إنه أغفل مشاغل صغيرة كالأقفال والمزاليج والأبواب.

يتساءل السّيّد بلانك إنْ لم تكن قد حانت اللحظة أخيراً للتأكّد من الأمر بنفسه. وعلى الرغم من خشيته، أفليس حَريّاً به أن يعرف الحقيقة بصورة نهائية بدلاً من العيش في حال من التّشكُّك الدائم؟ ربمّا، يقول لنفسه. ثمّ ثانية، ربمّا لا. قبل أن يحسم السّيّد بلانك أمره حول تمتُّعه بالجرأة الكافية للانتقال إلى الباب أخيراً، فإن مشكلة جديدة وأكثر إلحاحاً، تبرز نفسها فجأة – ما يمكننا وَصْفه بدقّة أكبر، بأنه "تحفُّز لحوح". الضغط بدأ يتصاعد ثانية في جسد السّيّد بلانك. وعلى عكس المرّة السابقة، التي استقرّ فيها الضغط في معدته، فإنه هذه المرّة استهدف بقعة منخفضة عن المعدة ببضعة إنشات، في المنطقة الجنوبية القصوى من بطنه. من تجربته الطويلة مع أمور من هذا القبيل، فإن الشيخ يفهم أن عليه أن يتبوّل. يفكّر بالانتقال إلى الحمّام على متن الكرسيّ، ولكنْ، مُدرِكاً أن الكرسيّ لن

Tele: @Arab_Books

يدخل في باب الحمّام، ومُدرِكاً أنه لا يمكنه التّبوُّل جالساً على الكرسيّ أيضاً، وأنه ستأتي اللحظة التي يتحتّم عليه فيها الوقوف (ليس إلا ليُعاود الجلوسَ ثانية على مقعد المرحاض، إذا ما انتابتْه نوبة دوار أخرى)، يُقرِّر أن يقوم بالرحلة سَيْراً على الأقدام. وهكذا ينهض من كرسيّه، مغتبطاً في الأثناء بأنه لم يفقد توازنه، وأن لا إشارات على الدوار الذي ابتُلي به سابقاً. إلا أنّ ما نسيه السّيّد بلانك هو أنه ما عاد ينتعل الحذاء الرياضيّ الأبيض، كما أنه لا ينتعل الخفَّيْن الأسودَيْن، ولم يعد من شيء على قَدَمَيْه سوى الجورَبَيْن الأبيضَيْن النايلون. ورغم رقّة المادّة التي صُنِعَ منها الجوربان، والملاسة البالغة للأرضية، فإن السّيّد بلانك يكتشف، بعد الخطوة الأولى، أنه من الممكن له أن يمضي قدماً - دون الصوت الكاشط للخفَّيْن، ولكنْ، كأنه يتزلّج على الجليد.

شكل جديد من المتعة غدا متوافراً له، وبعد ثلاثة انزلاقات تجريبية بين المنضدة والسرير، يخلص إلى أن هذا لا يقلّ متعة عن التأرجح إلى الأمام والخلف والدوران على الكرسيّ، بل ربّما يزيد متعة عن ذلك. الضغط يتزايد في مثانته، ولكنّه يُؤجِّل الرحلة إلى الحمّام، لكي يطيل قليلاً تزلُّجه على الجليد المُتخيَّل، وبينما يتزلّج حول الغرفة، رافعاً الآن إحدى قَدَمَيْه في الهواء، ثمّ الأخرى، أو مندفعاً بكلتَا القَدَمَيْن، يعود ثانية إلى الماضي البعيد، ليس مُوغلاً في القِدَم نحو مرحلة وايتي الحصان الهزّاز أو الصباحات التي كان يجلس فيها في حضن أمّه، بينما تُلبسه الثياب على السرير، ولكنْ، دون سبب معيّن، يعود إلى سنّ الثانية عشرة. إنه بعد ظهر يوم أحد بارد في يناير أو فبراير. البحيرة في البلدة الصغيرة التي نشأ فيها قد تجلّد سطحها، وثمّة السّيّد بلانك اليافع، الذي كان يُشار إليه حينذاك ماستر بلانك، مُتزلّجاً يداً بيد مع حبّه الأوّل، وهي فتاة خضراء العينَيْن، وذات شعر طويل بنّيّ مائل إلى الحمرة (مُشعّث بفعل الريح،

Tele: @Arab_Books

ووجنتاها مُتضرّجتان بحمرة البرد، اسمها ما عاد يذكره الآن، ولكنه يبدأ بحرف السين، يقول لنفسه، إنه واثق من ذلك، ربّما كان سوزي أو سامنثا أو سالي أو سرينا، ولكنْ، لا، ليس أيّاً من هذه الأسماء، ومع ذلك، لا يهمّ، إذ كانت تلك المرّة الأولى التي يمُسك بها يد فتاة، وأكثر ما يتذكّره الآن هو إحساسه بدخول عالم جديد، عالم يُشكِّل فيه مَسْكُ يد فتاة أمراً، يشتهيه المرء أكثر من أيّ أمر آخر، وكان شديد الوَلَع بتلك الفتاة اليافعة التي يبدأ اسمها بحرف السين، إلى درجة أنه ما إن توقّفا عن التزلُّج، وجلسا أرضاً على جذل شجرة على ضفّة البركة، حتّى استجمع السّيّد بلانك ما يكفي من الجرأة، ليميل نحوها، ويُقبّلها على شفتَيْها. لأسباب حيَّرتْه، وجرحتْه في ذلك الحين، فإن الآنسة سين انفجرتْ ضاحكة، وأشاحتْ وجهها عنه، ووبَّختْه بعبارة، بقيتْ معه منذ ذلك الوقت، وحتّى الآن في أوضاعه الحالية المُذِلَّة، وفي حين أن كلّ شيء مُلخبَط في رأسه، وثمّة الكثير من الأمور الممحوّة من ذاكرته، ما يزال يذكرها: لا تكن سخيفاً. ذلك أن موضع شغفه لم تكن تفهم شيئاً عن مثل هذه الأمور، وهي التي لم تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة، ولم تينع بعد إلى درجة أن يُشكِّل لها التقرُّب الغرامي من الجنس الآخر أيّ معنى. وهكذا، بدلاً من أن تردّ القُبلة بقُبلة مثلها، فقد ردّتْ بتلك الضحكة.

مكث هذا الصدود معه لأيّام بعدها، مُتسبّباً له بألم روحيّ عظيم، إلى درجة أنه ذات صباح، وقد لاحظتْ أمّه الكآبة التي تعلو وجهه، سألتْه ماذا ألمّ به. كان السّيّد بلانك يافعاً بما فيه الكفاية، بحيث لم يشعر بأيّ سوء في مصارحة أمّه، وهكذا أخبرها بقصّته كاملة، والتي ردّتْ عليها بالقول: لا عليكَ؛ ثمّة حصى أخرى على الشاطئ. كانت تلك المرّة الأولى التي يسمع فيها هذا التعبير، ووجده أمراً مثيراً للفضول مقارنة الفتيات بالحصى، وهنّ لا يشبهنَ الحصى، بأيّ حال من الأحوال، على الأقلّ، ليس

Tele: @Arab_Books

بحسب تجربته الشخصية. ومع ذلك، فقد تشبّث بهذه الاستعارة، ولكنْ، على الرغم من فَهْمه لما حاولتْ أمّه قوله له، فإنه لم يتّفق معها في الرأي، بما أن الشغف هو دوماً أعمى، وسيظلّ كذلك، وبقدر ما يخصّه، فثمّة حصوة واحدة على الشاطئ، يقيم لها الاعتبار، وإن لم يحصل عليها، فإنه لا يبالي بأيّ حصوة أخرى. كان الزمن كفيلاً بتغيير هذا كله، بالطبع، ومع مرور السنين، تمكّن من فَهْم الحكمة في تعليق أمّه. الآن، مع مواصلته التّزلُّج في أرجاء الحجرة، بالجورَبَيْن النايلون الأبيضَيْن، يتساءل كم من الحصى عرف منذ ذلك الحين. لا يمكنه أن يكون واثقاً، ذلك أن ذاكرته شبه معدومة، ولكنه يعرف أن هناك العشرات، وربّما أكثر – حصى أكثر في ماضيه ممّا يمكنه عَدّه، وصولاً إلى آنا، الفتاة الضائعة منذ سنوات طويلة، والتي أعاد اكتشافها اليوم بالذات على شاطئ الغرام اللامتناهي.

هذه المسرّات تحوم في رأس السّيّد بلانك في غضون ثوان، ربمّا اثنتا عشرة، وربمّا عشرون ثانية، وفي الأثناء، بينما يستيقظ الماضي في داخله، يحاول المحافظة على تركيزه، كي لا يفقد توازنه خلال التّزلُّج في الحجرة. غير أنه ومهما كانت قصيرة هذه الثواني، فثمّة لحظة تستولي فيها الأيّام السالفة على الحاضر، وبدلاً من التفكير والتّحرُّك في آن معاً، ينسى السّيّد بلانك أنه يتحرَّك، ويُركِّز حصراً على أفكاره، ولا يمرُّ وقت طويل، ربمّا أقلّ من نصف ثانية، أو ثانيتَيْن على أبعد تقدير، حتّى تزلّ قَدَمُهُ، ويسقط أرضاً.

لحسن الحظّ، لا يحطّ على رأسه، ولكنْ، من النواحي الأخرى كلها كانت سقطة رهيبة. مرتمياً خلفياً إلى الفراغ، بينما قَدَمَاه تُكافحان للتّشبُّث بالأرضية الخشبية الزلقة، يضع يَدَيْه خلفه مُتوهّماً أنه بذلك سيُخفّف من أثر السقطة، غير أنه يرتطم بالأرض على دابرته، وهو ما يجعل نيراناً بركانية تفور في رجلَيْه وجسده، وبما أنه سقط على يَدَيْه، فإن معصَمَيْه ومرفقَيْه

Tele: @Arab_Books

تلتهب فجأة هي الأخرى. يتلوَّى السّيّد بلانك على الأرضية، وقد بُوغتَ بما جرى، إلى درجة أنه لا يتمكّن حتّى من الإشفاق على نفسه، وبينما يكافح، ليستوعب الألم الذي سيطر عليه، ينسى قَبْضَ العضلات في عضوه وحوله، وهو ما كان يفعله خلال الفترة الأخيرة وهو يتزلّج عائداً إلى ماضيه. ذلك أن مثانة السّيّد بلانك ممتلئة حدّ الانفجار، ودون أن يبذل جهداً، لكي يحبس البول، فإنه على شفير المحتوم، وبعد هنيهة، يبول في سرواله. ليس بأفضل من طفل رضيع، يقول لنفسه، بينما يتدفّق السائل الدافئ منه، ويجري على ساقَيْه. ثمّ يضيف مُحدّثاً نفسه: ها هو يبكي ويتقيّأ بين ذراعَي مُربّيته. ثمّ، ما إن يتوقّف فيضان البول حتّى يصرخ بأعلى صوت: مُغفّل! كهل مُغفّل! ما خطبكَ؟

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الآن السّيّد بلانك في الحمّام، مُتجرّداً من سرواله، وملابسه الداخلية وجورَبَيْه، والتي تبلَّلتْ كلها، واصفرَّ لونها خلال هنيهات فقدانه السيطرة على مثانته. وفي خضمّ انزعاجه من هذه الهفوة، وعظامه ما تزال تُؤلمه، يرمي كل قطعة من ملابسه في حوض الاستحمام، ثمّ يأخذ المنشفة البيضاء التي استعملتْها آنا، لتُحمِّمه، ويمسح قَدَمَيه وصفنه بالمياه الدافئة. وبينما يفعل ذلك، يبدأ عضوه بالانتفاخ ناهضاً من حالته المترهّلة، ومرتفعاً من الوضع العامودي إلى زاوية خمس وأربعين درجة. على الرغم من المهانات المتعدّدة التي تعرَّض لها السّيّد بلانك خلال الدقائق الأخيرة، فلا يسعه ألا يشعر بالمؤاساة جرّاء هذا التّطوّر، وكأن هذا برهن على نحو ما أنّ شرفَهُ لم يُمَسّ. وبعد بضع هزّات أخرى، فإن رفيقه القديم يبرز بدرجة تسعين درجة كاملة، وبهذه الطريقة، مسبوقاً بانتصابه الثاني هذا الصباح، يخرج السّيّد بلانك من الحمّام، ويمشي إلى السرير، ويرتدي البيجاما التي وضعتْها آنا تحت المخدّة. "السّيّد الكبير" يكون قد بدأ بالارتخاء لدى وَضْع الشيخ قَدَمَيْه في الخفَّيْن الجلديَّيْن، ولكنْ، ما الذي يمكن توقُّعه سوى ذلك في غياب أيّ تدليك إضافيّ أو تحفيز ذهنيّ؟ يشعر السّيّد بلانك بمزيد من الراحة في المَنامة والخُفَّيْن، ممّا بالسروال الأبيض والحذاء الرياضيّ، ولكنه، في الوقت عينه، لا يستطيع مقاومة إحساسه بالذنب، بسبب هذه التّغيّرات في ملابسه، فالحقيقة هي أنه ما عاد مجلّلاً بالبياض، وهذا يعني أنه نكث بالوعد الذي قطعه لآنا – نزولاً عند طَلَب بيتر ستيلمان

Tele: @Arab_Books

الابن – وهذا يُؤلمه بعمق، بل بعُمق أكبر من الألم الجسدي الذي ما يزال أثره حاضراً في جسده. وبينما يمشي متثاقلاً إلى المنضدة، ليستأنف قراءة للنصّ، يُقرِّر الاعتراف لآنا بكلّ ما جرى معه في المرّة المقبلة التي يراها فيها، آملاً بأن تَغفر له.

بعد بضع ثوان، يكون جالساً من جديد على الكرسي، وعظمة الترقوة ما تزال تنبض، بينما يلوي مؤخّرته حتّى يستقرّ على وضعية مقبولة نوعاً ما. ثمّ يشرع في القراءة:

قبل ستّة شهور، سمعتُ للمرّة الأولى عن الاضطرابات في المناطق الغربية. كان ذلك في نهاية عصر أحد أيّام منتصف الصيف، وكنتُ وحدي في المكتب، أعمل على الصفحات الأخيرة من تقريري نصف السنوي. كنّا قد دخلنا في موسم البزّات القطنية البيضاء في ذلك الحين، بيد أن الطقس في ذلك اليوم كان قائظاً جدّاً، هابطاً علينا بثقل خانق، إلى درجة أنه حتّى أرقّ الملابس بدت ثقيلة. عند الساعة العشرة، أبلغتُ الرجال في قِسْمي بأن يتخفَّفوا من معاطفهم وربطات أعناقهم، وحين رأيتُ أن ذلك لم يُعطِ نتيجة تُذكَر، صرفتُهم جميعاً عند الظهر. وبما أن العاملين في الدائرة لم يفعلوا شيئاً طوال الصباح سوى الترويح على وجوههم، ومَسح العَرَق عن جباههم، بدا من غير المجدي له أن يُبقيهم رهائن أكثر من ذلك.

أتذكّر تناولي الغداء في برودر هوف، وهو مطعم صغير على ناصية الشارع الذي يقع فيه مبنى الخارجية.

بعد ذلك، سرتُ في جادّة سانتا فيكتوريا، ماضياً حتّى النهر، آملاً بالحصول على نسمة هواء منعشة. رأيتُ أطفالاً يُطلقون زوارقهم الصغيرة في المياه، والنسوة يمشينَ في مجموعات من ثلاث أو أربع حاملات

Tele: @Arab_Books

المظلّات الصفر الواقية من الشمس، وراسمات على وجوههنّ ابتساماتهنّ الحَييّة، والشّبّان ممدَّدين على العشب. لطالما أحببتُ العاصمة في الصيف. ثمّة سكون يُغلّفنا جميعاً في هذا الوقت من العام، شيء أشبه بالغيبوبة، يبدو أنها تزيل الفارق بين الأشياء المتحرّكة وتلك الجامدة، ومع تضاؤل حشود الناس على امتداد الجادّات، وزيادة هدوئهم، فإن سعار المواسم الأخرى يصعب تخيُّله تقريباً. ربمّا هذا لأن الحامي وعائلته يكونون قد غادروا المدينة بحلول ذلك الوقت، ومع شغور القصر شاغراً وانسدال الستائر الزرق على نوافذه المألوفة، فإن واقع الكونفدرالية يغدو أقلّ واقعيّة. يصبح المرء مدركاً للمسافات الكبرى والأراضي اللامتناهية والناس، ولفوضى وصخب الحيوات التي تُعاش -إلا أنها كلها تكون في نوع من الاستراحة، وكأن الكونفدرالية غدت أمراً داخلياً، حلماً يحمله كلّ امرئ في داخل نفسه.

بعد عودتي إلى المكتب، عملتُ بانتظام حتّى الساعة الرابعة من بعد الظهر. وكنتُ قد وضعتُ للتّوّ القلم من يدي، لكي أتأمّل الفقرات الختامية حين قاطعَني وصول مساعد الوزير، وهو شابٌ يُدعى جنسن أو جونسون، لا أذكر بالضبط. وسلّمني رسالة، ثمّ أشاح نَظَرَه بتحفُّظ في الاتّجاه الآخر، بينما أقرؤها، منتظراً جواباً، لكي يحمله إلى السفير. كانت الرسالة موجزة جدّاً: هل يمكن أن تمرّ بمنزلي هذا المساء؟ عذراً على هذه الدعوة المتأخّرة، ولكنْ، ثمّة مسألة بالغة الأهمّيّة، أحتاج إلى مناقشتها وإيّاك. جوبيرت.

كتبتُ ردّاً بقرطاسية القِسْم، شاكراً الوزير على دعوته، ومُخبراً إيّاه أنه يستطيع توقُّع حضوري عند الثامنة. غادر المساعد الأحمر الشعر حاملاً الرسالة، وبقيتُ لدقائق قليلة لاحقة جالساً إلى المنضدة، متفكّراً بما حدث

Tele: @Arab_Books

توّاً. جوبيرت عُيِّن وزيراً قبل ثلاثة أشهر، وفي ذلك الوقت لم أكن قد رأيتُه سوى مرّة واحدة في مأدبة رسمية، أُقيمت في الوزارة احتفاء بتعيينه. وفي الظروف الاعتيادية، فإن رجلاً مثلي لا يُقيم اتّصالات مباشرة بالوزير إلا نادراً، ووجدتُ من الغريب أن أُدعى إلى منزله، ولا سيما بمثل هذه العُجالة. ومن كلّ ما تناهى إلى سمعي عنه، فإنه لم يكن بالإداريّ المتُهوّر، ولا المندفع، ولم يستغلّ نفوذه بطريقة مُتهوّرة، أو غير منطقية. فَشَكَكْتُ في أن أكون قد دُعيتُ إلى هذا اللقاء الخاصّ، لأنه ينوي انتقاد عملي، ولكنْ، في الوقت عينه، وبالحُكم من عجلة الرسالة، كان جليّاً أن الأمر ليس مجرّد زيارة اجتماعية.

بالنسبة إلى شخص يتمتّع بتلك الرتبة الرفيعة، اكتشفتُ أن جوبيرت ليس بالشخص شديد المهابة. فهذا الرجل الموشك على بلوغ عامه السّتّين، هو رجل مربوع القامة ضئيل، ويعاني من ضعف في النَّظَر، وله أنفٌ بَصَليّ، شخصٌ لم يكفّ عن تعديل وإعادة تعديل نظّارته الأنفية خلال محادثتنا.

قادني خادم عبر الرواق الأساسي إلى مكتب صغير في الطابق الأرضي من منزل الوزير، وحين نهض جوبيرت ليُحيّيني، مرتدياً سترة الفراك القديمة الطرز وربطة عنق بيضاء جعداء، انتابني إحساس بأنني أصافح يد حاجب صغير، لا أهمّ رجل في الكونفدرالية. إلا أننا ما إن شرعنا في الكلام، حتّى زال ذلك الوَهْم. فهو يتمتّع بذهن صاف ثاقب، وكلّ تعليق من تعليقاته يأتي بطريقة ثابتة نافذة. وبعد اعتذاره عن استدعائي إلى منزله في مثل هذه العجالة، أومأ إلى الكرسي الجلدي المَطلي بالذهب قبالة منضدته، فجلستُ.

أفهم أنكَ سمعتَ بإرنستو لاند، قال، دون أن يضيّع المزيد من الوقت في الشكليات الفارغة.

كان صديقاً مُقرّباً لي، أجبتُ. حاربنا معاً في حروب الحدود الجنوبية،

Tele: @Arab_Books

ثمّ عملنا معاً في الدائرة المعلوماتيّة نفسها. وبعد معاهدة الاتّحاد في الرابع من مارس، عرّفني على المرأة التي أضحتْ زوجتي بعد ذلك، زوجتي الراحلة بياتريس. رجل ذو شجاعة استثنائية ومَقدرة. وموته خلال وباء الكوليرا كان خسارة فادحة، بالنسبة إليّ.

هذه هي القصّة الرسمية. ثمّة شهادة بالوفاة في دار السجلات البلديّة، ولكنّ اسم لاند ظهر فجأة في مناسبات عدّة. وإذا كانت تلك التقارير صحيحة، فيبدو أنه ما يزال على قيد الحياة.

هذه أخبار رائعة، سيّدي، يسعدني جداً سماع ذلك.

خلال الأشهر العديدة الماضية وصلتْنا شائعات من الحامية في ألتيما. لا شيء مؤكّداً بعد، ولكنْ، بحسب تلك القصص، فإن لاند عبر الحدود إلى الأراضي الغريبة، في وقت ما بعد انتهاء وباء الكوليرا. إنها رحلة ثلاثة أسابيع من العاصمة إلى ألتيما، وهذا يعني أن لاند غادر مباشرة بعد انتشار الوباء. إنه ليس ميتاً، إذن، بل ببساطة مفقود.

إن الأراضي الغريبة محظور دخولها. الجميع يعلم ذلك. مراسيم الحظر مُطبّقة منذ عشر سنوات.

ومع ذلك، فإن لاند هناك. إذا كانت التقارير الاستخباريّة صحيحة، فقد كان يتنقّل مع جيش، يفوق المئتَي رجل.

لا أفهم.

نظنّ أنه يثير النقمة بين السّكّان الأصليّين هناك، ويستعدّ لقيادتهم في انتفاضة ضدّ الأقاليم الغريبة.

هذا مستحيل.

Tele: @Arab_Books

لا شيء مستحيلاً غراف. أنتَ دون سائر الناس ينبغي أن تعلم ذلك.

لا أحد يؤمن بمبادئ الكونفدرالية بحماسة تفوق حماسته. إرنستو لاند رجل وطنيّ.

البشر أحياناً يُبدّلون قناعاتهم.

لابدّ من أنكَ مُخطئ. الانتفاضة مستحيلة. فالتّحرُّك العسكري يتطلّب وحدة بين السّكّان الأصليّين، وهذا لم يحدث يوماً، ولن يحدث. فهم متنوّعون ومنقسمون بقدرنا نحن. تقاليدهم الاجتماعية، ولغاتهم، ومعتقداتهم الدينية أبقتْهم على هذه الحال منذ قرون. شعب التاكا في الشرق يدفنون موتاهم مثلنا. وشعب الغانجي في الغرب يضعون موتاهم على منصّة عالية، ويتركون الجثمان حتّى يتحلّل في الشمس. وشعب الكرو في الجنوب يحرقون موتاهم. أما الفاهانتو في الشمال، فيطهون الجثث، ويأكلونها. يمكننا عَدّ ذلك إساءة ضدّ الرّبّ، ولكنْ، بالنسبة إليهم، فإن هذا طقس مقدَّس. كلّ أمّة تنقسم عشائر، وهذه العشائر تنقسم قبائل، ولا يتوقّف الأمر على أنهم حاربوا بعضهم بعضاً في مراحل مختلفة في الماضي، إلا أن العشائر ضمن كلّ شعب منهم قد حاربتْ بعضها بعضاً، على حدّ سواء. ببساطة لا أستطيع أن أتخيّلهم يتّحدون معاً، سيّدي. فإذا كانوا قادرين على القيام بعمل مشترك، لما كانوا هُزموا في المقام الأوّل.

أفهم أنكَ تعرف سكّان تلك الأراضي حقّ المعرفة.

أمضيتُ أَزْيَدَ من سنة بين ظهرانيهم خلال أيّام خدمتي الأولى في الوزارة. كان ذلك قبل الحظر طبعاً. وقد تنقّلتُ بين القبائل، ودرستُ أوضاع كلّ مجموعة منهم، متحرِّياً كل شيء، من شرائع تناوُل الطعام، إلى طقوس الزواج. كانت تجربة لا تُنسى. وقد غرقتُ في عملي منذ ذلك الحين، لكنني أعدّ تلك المهمّة أكثر المهمّات تحدِّياً في حياتي المهنية.

لقد كانت الأرض برمّتها ملكهم، ثمّ وصلت السفن جالبة معها المستوطنين من ممالك إيبريا والغال، ومن ألبيون(*) وجرمانيا، ومن الترتار(**)، وشيئاً فشيئاً، طُرد السّكّان الأصليون من أراضيهم. وقد ذبحناهم، واستعبدناهم، ثمّ جمعناهم معاً في الأراضي الجرداء القاحلة وراء الأقاليم الغربية. لابدّ من أنكَ صادفتَ مثل هذه المرارة والاستياء خلال أسفاركَ.

أقلّ ممّا قد يتبادر إلى ذهنكَ. بعد أربعمائة قرن من النزاع، فإن معظم الشعوب كانت مسرورة بالعيش بسلام.

كان هذا قبل أكثر من عشر سنين. لعلّهم بدّلوا موقفهم الآن. لو كنتُ مكانهم، لشعرتُ بالإغراء لإعادة غزو الأقاليم الغربية. فالأرض هناك خصبة، والغابات مليئة بالطرائد. هذا من شأنه مَنْحهم حياة أفضل وأسهل.

لكنّكَ تنسى أن الشعوب البدائية صدّقتْ على مراسيم الحظر. الآن وقد انتهى القتال، يُفضِّلون العيش في عالمهم المنفصل، دون تدخُّل من الكونفدرالية.

آمل بأن تكون محقّاً، غراف، ولكنْ، من واجبي حماية رفاهية الكونفدرالية. سواء أكانت تلك التقارير بشأن لاند بلا أساس أم لا، فإنّ علينا التحقيق بذلك. أنتَ تعرفه، وقد عشتَ زمناً في الأراضي، ومن بين أعضاء الوزارة كلهم، لا أجد شخصاً مؤهّلاً أفضل منكَ لتولّي هذه المهمّة. لستُ آمركَ بالذهاب، ولكنني أكون شاكراً جدّاً لو قبلتَ بها. مستقبل الكونفدرالية قد يكون متوقّفاً على هذه المهمّة.

تُشرّفني ثقتكَ هذه، سيّدي. ولكنْ، ماذا لو لم يُسمَح لي بعبور الحدود؟

---

*) Albion الاسم الإغريقي القديم لجزيرة بريطانيا العظمى.

**) تحريف للفظ التتار.

Tele: @Arab_Books

ستحمل رسالة شخصية منّي إلى الكولونيل دي فيغا، الضابط المسؤول عن الحامية. لن يكون مسروراً بها، ولكنْ، لن يكون أمامه خيار. فأوامر الحكومة المركزيّة واجبة الطاعة.

ولكنْ، إذا كان هذا صحيحاً، ولاند موجود في الأراضي الغربية مع مئة رجل، فإنّ هذا يثير سؤالاً محيّراً، أليس كذلك؟

سؤال؟

كيف تمكّن من الوصول إلى هناك؟ ممّا أخبرته، ثمّة جنود يتمركزون على طول الحدود. أستطيع تخيُّل تسلُّل رجل واحد، ولكنْ، ليس مئة رجل. إذا كان لاند قد عبر، فلا بدّ من أن ذلك تمّ بعلْم الكولونيل دي فيغا.

هذا جائز، وربّما لا. هذا أحد الألغاز التي نأتمنكَ على حلّها.

متى تريدني أن أغادر؟

في أقرب وقت ممكن. سيكون هناك عربة من الوزارة بتصرّفكَ. سوف نمدّها بالمستلزمات، ونقوم بجميع الترتيبات الضرورية. الشيء الوحيد الذي ستحتاج إلى حمله معكَ هو الرسالة والملابس التي ترتديها.

صباح غد، إذن. لقد أنهيتُ كتابة تقريري نصف السنويّ، أنهيتُ مهامّي المكتبية.

احضرْ إلى الوزارة عند التاسعة، لكي تأخذ الرسالة. سأكون بانتظاركَ في مكتبي.

جيّد جدّاً، سيّدي. عند التاسعة من صباح غد.

Tele: @Arab_Books

لحظة وصول السّيّد بلانك إلى نهاية المحادثة بين غراف وجوبيرت، يبدأ الهاتف بالرنين، ومرّة جديدة، يضطر السّيّد بلانك إلى التوقّف عن القراءة، مدمدماً الشتائم، وهو ينهض عن الكرسيّ، يقطع الغرفة على مهل، باتّجاه منضدة السرير، متحرّكاً بصعوبة، بسبب الكدمات التي أُصيب بها حديثاً، فيكون تقدُّمه بطيئاً جدّاً، إلى درجة أنه لا يرفع السمّاعة قبل الرنّة السابعة، في حين تمكّن من قبل الرّدّ على اتّصال فلود عند الرنّة الرابعة.

ماذا تريد؟ يقول السّيّد بلانك بخشونة، وهو يجلس على السرير شاعراً فجأة بوَخْز الدوار المألوف يحوم في داخله.

أريد أن أعرف إذا ما كنتَ قد أنهيتَ القصّة، يجيبه رجل بهدوء.

القصّة؟ أيّ قصّة هذه؟

تلك التي كنتَ تقرؤها. القصّة المتعلّقة بالكونفدرالية.

لم أكن أعلم أنها قصّة. تبدو لي أقرب إلى التقرير، كأنها شيء وقع حقاً.

إنها عمل مُختلَق. قصّة من نسج الخيال.

آه، هذا يفسِّر سبب عدم سماعي بذلك المكان. أعرف أن حالتي الذهنية ليست في أفضل مستوياتها اليوم، ولكنني ظننتُ أن مخطوط غراف قد عثر عليه أحدهم بعد سنوات من كتابته له، ثمّ قام طبّاع بنَسْخها.

Tele: @Arab_Books

خطأ بريء.

خطأ غبيّ.

لا تشغلْ بالكَ بهذا. كلّ ما أريد معرفته هو ما إذا أنهيتَها أم لا.

تقريباً. ما يزال أمامي بضع صفحات فقط. لو لم تُقاطعني بهذا الاتّصال اللعين، لكنتُ أنهيتُها الآن، على الأرجح.

جيّد. سوف آتي في غضون ربع أو ثلث ساعة، ويمكننا البدء بالجلسة.

الجلسة؟ عمّ تتكلّم؟

أنا طبيبكَ، سيّد بلانك. آتي وأراكَ كلّ يوم.

لا أتذكّر أن لديّ طبيب.

بالطبع، لا تتذكّر. هذا لأن العلاج بدأ يُؤتي ثماره.

وهل يحمل طبيبي اسماً؟

فار. صموئيل فار.

فار... إممم. أجل، صموئيل فار ... هل تعرف امرأة تُدعى آنا؟

سنتكلّم لاحقاً بهذا الشأن، في الوقت الحالي كلّ ما عليكَ فعله هو إنهاء القصّة.

طيّب، سوف أنهيها. ولكنْ، حين تأتي إلى حجرتي، كيف سأتعرّفكَ؟ ماذا لو جاء شخص آخر مُدّعياً أنه أنتَ؟

ثمّة صورة فوتوغرافية لي على منضدتكَ. الصورة الحادية عشرة من أعلى الكدسة. انظرْ إليها ملياً، وحين آتي، لن تواجه مشكلة في معرفتي.

Tele: @Arab_Books

الآن السّيّد بلانك جالس مجدّداً على كرسيه، وقد انكبّ فوق المنضدة. بدلاً من البحث عن صورة صموئيل فار في كدسة الصور، مثلما قيل له، فإنه يتناول الحشية والقلم الكرويّ، ويضيف اسماً آخر إلى القائمة:

جايمس ب. فلود.

آنا.

دافيد زيمر.

بيتر ستيلمان جونيور.

بيتر ستيلمان الأب.

فانشاو.

الرجل مع البيت.

صموئيل فار.

ما إن يضع القلم والورق من يده حتّى يحمل مخطوط القصّة، ناسياً اعتزامه النَّظَر إلى صورة صموئيل فار، تماماً كما نسي منذ وقت طويل البحث عن الخزانة التي يفترض وجودها في غرفته. الصفحات الأخيرة من النصّ هي كالتالي:

منحتْني الرحلة الطويلة إلى ألتيما الوقت الكافي، لأتفكّر بطبيعة

Tele: @Arab_Books

مهمّتي. وقد تولّتْ مجموعة من الحوذيّين قيادة العنان كل مئتَي ميل، أما أنا، فلم يكن أمامي ما أفعله سوى الجلوس في العربة، ومشاهدة المناظر الخارجية، وقد تنامى في داخلي شعور بالخوف مع اقترابي أكثر فأكثر من وجهتي. كان إرنستو لاند رفيقي وصديقي الحميم، وقد عانيتُ أشقّ المصاعب في قبول حكم جوبيرت عليه، بأنه ارتدّ إلى خائن لقضية، سلخ عمره في الدفاع عنها. وقد بقي في الخدمة العسكرية بعد مصالحات العام ٣١، مواصلاً عمله كضابط استخبارات تحت قيادة وزارة الحرب، وكلّما تناول الطعام عندنا في منزلنا أو التقيتُه لوجبة بعد ظهر في أحد المقاصف بجوار وزارة الحرب، كان يتكلّم بحماسة عن النصر المحتوم للكونفدرالية، واثقاً من أن كلّ ما حلمنا به وحاربنا من أجله منذ يفاعتنا سوف يتحقّق أخيراً. الآن، بحسب عملاء جوبيرت في ألتيما، فإن لاند لم ينجُ فحسب من الموت خلال وباء الكوليرا، بل إنه لفّق موته، لكي يختفي في البراري مع جيش صغير من مُعادي الكونفدرالية، لكي يثير العصيان بين البدائيّين. بالحكم من كل ما أعرفه عنه، فقد بدا هذا اتّهاماً عَبَثياً ومُحالاً.

نشأ لاند في إقليم تييرا فييجا الزراعي في الشمال، وهو المكان نفسه الذي وُلدتْ فيه زوجتي بياتريس. وقد كانا صديقَيْن منذ الطفولة، وطوال سنوات، كان من المُسلَّم به من قِبَل عائلتَيْهما أنهما سوف يتزوّجان في نهاية المطاف. وقد اعترفتْ لي بياتريس ذات مرّة أن إرنستو كان حبّها الأوّل، وحين أدار لها لاحقاً ظهره، وخطب أورتينس تشاترتون، ابنة عائلة ثرية من صُنّاع السفن من مونت سبليم، شعرتْ أن حياتها وصلتْ إلى نهايتها. لكنّ بياتريس فتاة قوية، فخورة جدّاً بنفسها، ممّا يمنعها من مشاركة معاناتها مع أيّ كان، وفي تعبير عن شجاعة وكبرياء استثنائيَّيْن، رافقتْ والدَيْها وشقيقَيْها إلى مراسم الزواج المترفة في مساكن تشاترتون. وهناك تعارفنا. وقعتُ في غرامها في تلك الأمسية الأولى، ولكنْ، لم يكن إلا بعد تودُّد

Tele: @Arab_Books

دام ثمانية عشر شهراً أنها قبلتْ أخيراً عرضي الزواج منها. عرفتُ أنني في نَظَرها لم أكن أضاهي لاند. لم أكن بقدر وسامته ولا ذكائه، وقد تطلّب الأمر وقتاً قبل أن تفهم أن ثبات شخصيّتي والتزامي الشرس بها، لم يكونا بمواصفات أقلّ أهمّيّة، يمكن أن يُبنى عليهما زواج مدى الحياة. بقدر ما أُعجبتُ بلاند، فقد كنتُ أعرف عيوبه. لطالما كان فيه شيء برّيّ وجامح، ثقة صلبة بتفوُّقه على الآخرين، وعلى الرغم من سِحْره وقُدرته على الإقناع، تلك القُدرة الفطرية على جَلْب الانتباه له أينما حلّ، فإن المرء ليشعر بالغرور كامناً تحت السطح. زواجه من أورتينس تشاترتون أثبت أنه زواج تعس. بدأ بخيانته لها منذ البداية، وحين تُوفّيت خلال الولادة بعد أربع سنوات من زواجهما، تعافى سريعاً من فقدانها. خاض جميع طقوس العزاء والأسى أمام الآخرين، ولكنْ، في الأسفل، شعرتُ أنه مرتاح أكثر ممّا هو مفطور الفؤاد. صرنا نراه أكثر بعد ذلك، أكثر ممّا كانت الحالة في السنوات الأولى من قراننا. وممّا شفع له أنه بات شديد الارتباط بابنتنا الصغيرة مارتا، جالباً الهدايا لها، كلّما زار البيت، وممطراً إيّاها بالعاطفة الرقيقة حتّى باتت تعدّه بطلاً، أعظم رجل مشى على وجه البسيطة. كان يتصرّف بكلّ احتشام معنا، ولكنْ، مَنْ يمكنه أن يلومني إذا ما شَكَكْتُ أحياناً ما إذا كانت النيران التي اضطرمتْ يوماً في روح زوجتي تجاهه، قد خمدتْ كُلّيّاً؟ لم يحدث أيّ خطأ - لا كلمات ولا نظرات بينهما لها أن تُثير غيرتي، ولكنْ، في أعقاب وباء الكوليرا الذي يُفترض أنه أدّى إلى وفاتهما هما الاثنان، ما الذي كان يُفترض بي استخلاصه من حقيقة التقارير بأن لاند على قيد الحياة، وأنه على الرغم من كل جهودي لمعرفة شيء عن مصير بياتريس، فإنني لم أجد شاهداً واحداً رآها في العاصمة خلال المحنة؟ لولا شجاري الكوارثي مع جيل ماكنوتون الذي بدأ بسبب تلميحات بشعة تتعلّق بزوجتي، لكان من غير المحتمل أن أعذّب نفسي في مثل هذا الشكّ المظلم في طريقي إلى

Tele: @Arab_Books

ألتيما. ولكنْ، ماذا لو كانت بياتريس ومارتا هربتا مع لاند خلال تنقّلي في المجتمعات المستقلّة في إقليم تييرا بلانكا؟ بدا ذلك مستحيلاً، ولكنْ، كما قال جوبيرت لي عشية رحيلي، لا شيء مستحيلاً، وأنا دون سائر البشر مَنْ يُفترَض أن أعلم ذلك علم اليقين.

دارت عجلات العربة، وبوقت وصولي إلى ضواحي والنغهام، التي تُعدّ منتصف الرحلة، فهمتُ أنني أقترب من رعب ذي حدَّيْن. فإذا كان لاند قد خان الكونفدرالية، فإن أوامر الوزير لي تقضي باعتقاله، وإعادته إلى العاصمة مغلولاً بالسلاسل. وهذه الفكرة وحدها شنيعة تماماً، ولكنْ، إذا كان صديقي قد خانني وسرق زوجتي وابنتي منّي، ففي هذه الحالة، كنتُ أخطّط لقَتْله. هذا كنتُ متأكّداً منه، بصرف النَّظَر عن العواقب. فلتحلّ عليّ لعنة الرّبّ لتفكيري بذلك، ولكنْ، من أجل إرنستو ومن أجلي، صلّيتُ أن تكون بياتريس مُتوفّية حقاً.

Tele: @Arab_Books

يطرح السّيّد بلانك حشية الورق على المنضدة، ناخراً بامتعاض ونقمة، يحدوه غضبٌ عارمٌ لاضطراره إلى قراءة قصّة، لا نهاية لها، عمل غير مُنته، بالكاد قد بدأ، مجرّد جزئيّة صغيرة. يا للقمامة! يقول بصوت مرتفع، ثمّ، دائراً بالكرسيّ نحو ١٨٠ درجة، يجرّ نفسه إلى باب الحمّام. يشعر بالظمأ. ودون مياه شرب متوافرة، فالحلّ الوحيد هو أن يسكب لنفسه كأس ماء من المغسلة. ينهض عن السرير، يفتح الباب، ويدخل متثاقلاً، ليفعل هذا فحسب، نادماً لكونه هدر هذا الوقت كلّه في قراءة تلك القصّة البائسة. يشرب كوباً، ثمّ آخر، مستنداً بيسراه على المغسلة، لكي يحافظ على توازنه، بينما يحدّق ببؤس بالملابس المتّسخة في الحوض. الآن وقد وجد نفسه في الحمّام، يتساءل السّيّد بلانك ما إذا كان يجدر به أن يتبوّل مرّة أخرى، فقط لكي يكون في الجانب الآمن. وقلقاً من احتمال أن يسقط ثانية، لو أطال الوقوف على قَدَمَيْه، يخفض السروال حتّى ركبتَيْه، ويجلس على مقعد المرحاض. مثل امرأة، يقول لنفسه، وقد أعجبتْه فجأة فكرة كم كانت لتختلف حياته، لو أنه لم يُولَد رجلاً. بعد الحادثة الأخيرة التي تعرّض لها، لم يكن لدى مثانته ما تقوله دفاعاً عن نفسها، إلا أنه يُفلح أخيراً في أن يُنقّط بضع قطرات بائسة. يُعاود رَفْع السروال، بينما ينهض على قَدَمَيْه، يدفق الماء في المرحاض، ثمّ يغسل يدَيْه في المغسلة، ويجفّفهما بالمنشفة، ثمّ يستدير، ويفتح الباب – حيث يرى رجلاً يقف في حجرته. فرصة أخرى ضائعة، يقول لنفسه، مدركاً أن جلبة دَفْق ماء المرحاض قد

Tele: @Arab_Books

كَبَتَتْ صوت دخول الغريب، وبالتالي تاركة السؤال ما إذا كان الباب مغلقاً من الخارج، دون إجابة.

يجلس السّيّد بلانك على الكرسي، ويقوم بنصف استدارة مفاجئة، لكي يلقي نظرة على الزائر الجديد، وهو رجل طويل في منتصف الثلاثين، يرتدي بنطال جينز أزرق، وقميصاً أحمر مفتوح القبّة. شعره أسود، وعيناه سوداوان، ووجهه أعجف، يبدو أنه لم ينفرج من سنوات عن ابتسامة. ولكنْ، لا يمضي وقت طويل على ملاحظة السّيّد بلانك هذه، حتّى يبتسم له الرجل، ويقول: مرحباً، سيّد بلانك، كيف حالكَ اليوم؟

وهل أعرفكَ؟ يسأله السّيّد بلانك.

ألم تنظرْ إلى الصورة؟ يردّ الرجل.

أيّة صورة؟

تلك التي على منضدتكَ. الصورة الثانية عشرة بالترتيب من الأعلى. أتذكر؟

آه، تلك، أجل، أظنّ ذلك. كان يُفترَض بي أن أُلقي نظرة عليها، أليس كذلك؟

ثمّ؟

نسيتُ. كنتُ منشغلاً جدّاً بقراءة تلك القصّة البليدة. ويبحث في الكدسة.

لا بأس، يقول الرجل، مستديراً وسائراً نحو المنضدة، حيث يحمل الصور الفوتوغرافية، ويبحث بينها حتّى يجد الصورة المطلوبة. ثمّ، مُعيداً

Tele: @Arab_Books

الصور إلى المنضدة، يقترب من السّيّد بلانك، ويناوله الصورة. أترى، سيّد بلانك؟ يقول. ها أنا ذا.

لابدّ من أنكَ الطبيب، إذن، يقول السّيّد بلانك ... صموئيل ... صموئيل شيء ما ...

فار.

هذا صحيح. صموئيل فار. تذكّرتُ الآن. تربطكَ صلة ما بآنا، أليس كذلك؟

صحيح، ولكنْ، هذا كان قبل زمن طويل.

متشبّثاً بالصورة بيدَيْه الاثنتَيْن، يرفعها السّيّد بلانك حتّى تصبح قبالة وجهه تماماً، ثمّ يمعن النظر فيها لعشرين ثانية. فار، الصورة تشبهه كثيراً، يجلس في حديقة ما بمبذله الأبيض، وثمّة سيجارة مشتعلة بين السبّابة والوسطى في يده اليسرى.

لا أفهم، يقول السّيّد بلانك، وقد أحسّ بنفسه محاصراً فجأة بهجوم جديد من العذاب الذي يشتعل كالجمر في صدره، ويجعل معدته تنقبض حتّى لكأنها قبضة يد مضمومة.

ما الخطب؟ يسأله فار. إنها تُشبهني كثيراً، ألا توافقني الرأي؟

حدّ التطابق. ربّما تكون أكبر بعام أو اثنَيْن الآن، إلا أن الرجل في الصورة هو أنت بكلّ تأكيد.

وهل تجدُ مشكلة في ذلك؟

كلّ ما في الأمر أنكَ يافع جداً، يقول السّيّد بلانك بصوت مرتعش،

Tele: @Arab_Books

باذلاً قصارى جهده، لكي يقاوم الدموع الآخذة بالتّشكُّل في عينَيْه. آنا يافعة في صورتها أيضاً. لكنها قالت لي إن الصورة التُقطت قبل أَزْيَدَ من ثلاثين عاماً. لم تعد فتاة الآن، فقد ابيضّ شعرها، وتوفيّ زوجها، والوقت يُحوّلها عجوزاً. ولكنْ، هذه ليست حالكَ، فار. لقد كنتَ معها. كنتَ في البلد الرهيب الذي أرسلتُها إليه، ولكنّ ذلك كان منذ أكثر من ثلاثة عقود، وشكلكَ أنتَ لم يطرأ عليه تغيّر.

يتردّد فار، ومن الجليّ أنه غير واثق من الطريقة التي عليه أن يجيب بها السّيّد بلانك. يجلس على حافة السرير، ويبسط يَدَيْه على ركبَتَيْه، ثمّ يُطرق النَّظَر أرضاً، متّخذاً الوضعية نفسها التي وجدنا بها الشيخ في بداية هذا التقرير. يتبع ذلك صمت طويل. وأخيراً يقول بصوت منخفض: ليس مسموحاً لي التّكلُّم في ذلك.

ينظر إليه السّيّد بلانك مرعوباً. إنكَ تخبرني بأنكَ ميت، يصرخ. أليس كذلك؟ أنتَ لم تنجُ. آنا نجتْ، أما أنتَ، فلا.

يرفع فار رأسه، ويبتسم. أأبدو لكَ ميتاً، سيّد بلانك؟ يسأله. جميعنا نمرّ بأوقات عصيبة، بالطبع، ولكنّني حيّ بقدركَ تماماً، صدِّقني.

ولكنْ، من يجزم بأنني حيّ أم ميت؟ يقول السّيّد بلانك، محدّقاً بتجهُّم بفار. ربمّا كنتُ ميتاً أنا الآخر. وفقاً للكيفيّة التي تجري بها الأمور معي هذا الصباح، فلن أكون متفاجئاً البتّة لو كانت هذه الحال. بالحديث عن العلاج، فإنه على الأرجح مجرّد مرادف للموت.

أنتَ لا تذكر الآن، يقول فار، ناهضاً عن السرير، وآخذاً الصورة من يدَي السّيّد بلانك، ولكنّ المسألة برمّتها كانت فكرتكَ أنتَ. لقد كنتَ تفعل ما طُلب منكَ فحسب.

Tele: @Arab_Books

هراء. أريد أن أقابل محامياً. سوف يُخرجني من هنا. أنا لديّ حقوق كما تعرف.

هذا يمكن تدبيره، يجيب فار، معيداً الصورة إلى المنضدة، ثمّ إلى موضعها في الكدسة. لو أردتَ، فسأطلب من أحدهم المرور بكَ بعد ظهر اليوم.

جيّد، يُتمتم السّيّد بلانك، وقد بُوغتَ نوعاً ما باهتمام فار. هذا سيكون أفضل.

ناظراً إلى ساعته، يعود فار إلى السرير، ويجلس ثانية قبالة السّيّد بلانك الذي ما يزال على الكرسي قرب باب الحمّام. بدأ الوقت يتأخّر، يقول الشّابّ. حَريّ بنا أن نبدأ حديثنا.

حديثنا؟ أيّ حديث هذا؟

الاستشارة.

أفهم الكلمة، لكنني لا أفهم ما الذي تقصده بها.

يفترض بنا مناقشة القصّة.

ما الجدوى؟ إنها مجرّد بداية قصّة، ومن حيث أتيتُ، فإن القصص يُفترَض أن تكون لها بداية ووسط ونهاية.

أتّفق معكَ تماماً.

مَن الذي كتب قطعة الهراء هذه، بالمناسبة؟ يجب سوق الوغد إلى الخارج، وإعدامه رَمْياً بالرصاص.

Tele: @Arab_Books

يُدعى جون تراوز، أسمعتَ به يوماً؟

تراوز ... إمممم ... ربمّا. إنه روائيّ، أليس كذلك؟ كلّ شيء مُشوّش في ذهني الآن، ولكنني لربمّا قرأتُ بعض أعماله.

لقد فعلتَ، كنْ واثقاً من ذلك.

لمَ إذن لا تعطيني بعض تلك الأعمال، لأقرأها بدلاً من هذه القصّة البائسة غير المُنتهية، والتي لا عنوان لها؟

تراوز أنهاها حقّاً. فالمخطوط يبلغ مئة وعشر صفحات، وقد كتبها في مطلع الخمسينيات حين كان في بداية حياته روائياً. ربمّا لا تُقدّرها تقديراً عالياً، إلا أنها ليست بالسّيّئة، بالنسبة إلى فتى في الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره.

لا أفهم. لمَ لا تدعني أقرأ بقيّتها؟

لأنّه جزء من العلاج، سيّد بلانك. لم نضع الأوراق كلّها على المنضدة، لنرفّه عنكَ فحسب. بل وضعناها هنا لغرض معيّن.

من قبيل؟

لكي نختبر ردود أفعالكَ، من بين أهداف أخرى.

ردود أفعالي؟ ما شأن ذلك بالرواية؟

ردود الأفعال الذهنية والعاطفية.

ثمّ؟

Tele: @Arab_Books

ما أريده منكَ هو أن تخبرني ببقية القصّة، ابتداء من حيث توقّفتَ عن القراءة، قلْ لي ماذا يجب أن يحدث الآن، وصولاً إلى الفقرة الأخيرة، إلى الكلمة الأخيرة. لديكَ البداية، والآن أريدكَ أن تعطيني الوسط والنهاية.

ما هذا؟! أهي لعبة ألغاز ما؟!

لو شئتَ أن تُسمّيها كذلك. أُفضِّل أن أعدّ ذلك تمريناً على المنطق التخييلي.

عبارة جميلة، أيّها الطبيب. المنطق التخييلي. منذ متى كان للمخيّلة أيّة صلة بالمنطق؟

منذ الآن، سيّد بلانك. منذ اللحظة التي تشرع فيها بإخباري بقية القصّة.

حسنٌ. ليس وكأن ثمّة أمر أفضل أقوم به، أليس كذلك؟

هذه هي المعنويات المطلوبة.

يُغمض السّيّد بلانك عينَيْه، لكي يُركّز على المهمّة المُوكَلَة إليه، إلا أن انعدام رؤيته للحجرة ولمحيطه المباشر، يكون له ذلك التأثير المزعج باستحضار موكب الأطياف التي كانت تمشي في موكب داخل رأسه في مراحل مبكرة من السِّرْد. ينتفض السّيّد بلانك من الرؤية الشبحية، وبعد هنيهة، يفتح عينَيْه ثانية، لكي يجعل الموكب يختفي.

ما الأمر؟ يسأل فار، وقد ارتسم القلق على وجهه.

الأطياف اللعينة، يقول السّيّد بلانك. لقد عادت ثانية.

الأطياف؟

Tele: @Arab_Books

ضحاياي. كلّ الذين سبّبتُ لهم بالمعاناة على مَرِّ السنين. إنهم يطاردونني الآن، لكي ينتقموا منّي.

أبْقِ عينَيْكَ مفتوحَتَيْن فقط، سيّد بلانك، وسوف يختفون. علينا المضيّ قدماً في القصّة.

طيّب، طيّب، يقول السّيّد بلانك، مطلقاً تنهيدة طويلة، ملؤها الإشفاق على النفس. أمهلني دقيقة.

لمَ لا تخبرني ببعض أفكارك حول الكونفدرالية. ربّما يساعدكَ ذلك على البدء.

الكونفدرالية ... الك .. نفد .. را .. ليّة ... الأمر بسيط جداً، أليس كذلك؟ إنه مجرّد تورية عن أمريكا. ليس الولايات المتّحدة كما نعرفها، بل بلد نشأ وتطوّر بطريقة أخرى، وله تاريخ آخر. لكنّ كل الأشجار والجبال والبراري في ذلك البلد تقع في الموقع نفسه، كما بلدنا. الأنهار والمحيطات مطابقة. البشر يمشون على قَدَمَيْن، ويُبصرون بعينَيْن، ويلمسون بيدَيْن. يفكّرون أفكاراً مزدوجة، ويتكلّمون من طرَفَيَ أفواههم في آن معاً.

جيّد. والآن ما الذي يحدث لغراف لدى وصوله إلى ألتيما؟

يذهب لمقابلة الكولونيل حاملاً خطاب جوبيرت، لكنّ دي فيغا يتصرّف وكأنه تلقّى للتّوّ رسالة من طفل، بما أنه متآمر مع لاند. يُذكِّره غراف بضرورة إطاعة أوامر المسؤولين في الحكومة المركزيّة، لكنّ الكولونيل يجيبه بأنه يتبع وزارة الحرب، وقد تلقّى أوامر صارمة بالخضوع لمراسيم حظر الدخول. يذكر غراف الشائعات المتعلّقة بلاند والمئة جنديّ الذين تسلّلوا إلى الأراضي الغربية، لكنّ دي فيغا يزعم أنه لا يعلم شيئاً عن ذلك. فيقول غراف حينئذ إنه ليس أمامه إلا مراسلة وزارة الحرب طالباً استثناءً، بتجاوز مراسيم الحظر.

Tele: @Arab_Books

جيّد، يقول دي فيغا، لكنّ وصول رسالة وعودة الرّدّ عليها من العاصمة يتطلّب ستّة أشهر، وما الذي أنت فاعله في الأثناء؟ أستمتع بالأماكن السياحية في ألتيما، يجيب غراف، وأنتظر وصول الجواب، مُتيقّناً من أن الكولونيل لن يسمح بمرور رسالته، وأنه سيتمّ إيقافها لحظة محاولة إرسالها.

لماذا دي فيغا متآمر؟ ممّ يبدو، فهو ضابط وفيّ.

إنه وفيّ. وكذلك إرنستو لاند مع جنوده المئة في الأراضي الغريبة.

لا أفهم.

الكونفدرالية هي دولة حديثة النشأة هشّة، يتكوّن بنيانها من المستعمرات والأقاليم المستقلّة سابقاً، وللحفاظ على تماسك هذا الاتّحاد الضعيف، فما الأفضل لتوحيد الشعب من اختراع عدوّ مشترك، والبدء بحرب؟ في هذه الحالة، اختاروا البدائيّين. لاند هو عميل مُزدَوَج، أُرسل إلى الأراضي، لكي يحرّض على العصيان بين القبائل هناك. لا يختلف الأمر كثيراً عمّا فعلناه مع الهنود بُعيد الحرب الأهلية. نقوم برَصّ صفوف السّكّان الأصليّين، ثمّ نذبحهم.

ولكنْ، كيف يعرف غراف أن دي فيغا ضالع في الأمر أيضاً؟

لأنّه لا يطرح ما يكفي من الأسئلة. كان عليه أقلّه ادّعاء الاهتمام. ثمّ هناك حقيقة أنه ولاند يعملان في وزارة الحرب. أما جوبيرت ومجموعته في الداخلية، فلا يعرفون شيئاً عن المخطّط، بالطبع، لكنّ هذا طبيعيّ تماماً. فالوكالات الحكومية تخفي الأسرار عن بعضها بعض طوال الوقت.

ثمّ؟

جوبيرت أعطى غراف أسماء ثلاثة رجال، جواسيس يعملون لصالح

Tele: @Arab_Books

الداخليّة في ألتيما. ولا واحد منهم يعرف بوجود الآخرين، لكنّهم بصورة جماعية كانوا مصدر المعلومات التي استقاها جوبيرت عن لاند. بعد محادثته مع الكولونيل، يذهب غراف بحثاً عنهم. ولكنه يكتشف أنهم واحداً بعد الآخر قد مُركزوا كما يقال في أماكن أخرى. لنجد لهم بعض الأسماء. دائماً يكون الأمر أكثر تشويقاً حين تحمل الشخصية اسماً. الملازم ... إمممم ... الفريق جاك دوبان نُقل إلى مركز في الجبال الوسطى العالية قبل شهرَيْن. والدكتور كارلوس ... ووبورن ... غادر المدينة في يونيو، لكي يتطوّع بالخدمة بعد انتشار الجدري في الشمال. وديكلان براي، وهو أكثر حلاقي ألتيما نجاحاً، توفيّ من تسمُّم غذائي في بداية أغسطس. سواء بالصدفة أم بعمل مخطَّط، يستحيل أن نعرف، ولكنْ، ها هو غراف المسكين، وقد تقطّعتْ به سُبُل الاتّصال بالداخليّة الآن، دون أيّ حليف أو صديق، وحيداً تماماً في الركن القَصيّ المَنسيّ من الأرض.

جميل جداً. الأسماء لمسة جميلة، سيّد بلانك.

عقلي يعمل بسرعة مئة ميل في الساعة. لم أشعر بمثل هذا النشاط طوال اليوم.

العادات القديمة تموت بصعوبة، على ما أظنّ.

ماذا يُفترض أن يعني ذلك؟

لا شيء. فقط أنكَ في حال طيّبة، وقد بدأتَ تنشط تماماً. ماذا يحدث بعد ذلك؟

غراف يتسكّع في ألتيما لأكثر من شهر، محاولاً تصوُّر سبيل لعبور الحدود إلى الأراضي. فهو لا يستطيع الذهاب راجلاً في نهاية المطاف. يحتاج إلى جواد، وبندقية، ومؤن، وعلى الأرجح حماراً أيضاً. في الأثناء،

Tele: @Arab_Books

دون ما يشغله طوال اليوم، يجد نفسه مُنجرّاً إلى مجتمع ألتيما -على حاله تلك، لا يعدّه أكثر من حامية صغيرة حقيرة وسط لا مكان. من بين الناس كلهم، فإن المنافق دي فيغا هو مَنْ يقوم بعَرْض عظيم من التودُّد إليه. فيدعوه إلى حفلات العشاء، تلك الحفلات الطويلة المُنهكَة التي يحضرها الضّبّاط والمسؤولون الحكوميون والتّجّار، مع زوجاتهم وصاحباتهم، وما إلى ذلك، ويصحبه إلى أفضل الحانات، وحتّى إنه يرافقه مرّتَيْن في رحلة صيد. ثمّ هناك عشيقة الكولونيل... تشارلوتا ... تشارلوتا هوبتمان ... امرأة حسّيّة فاسقة، مثال الأرملة الداعرة التي يُشكّل الجنس ولعب الورق تسليتها الوحيدة في الحياة. الكولونيل متزوّج، بالطبع، وله طفلان، وبما أنه لا يستطيع زيارة تشارلوتا إلا مرّة أو اثنتَيْن أسبوعياً، فإنها متوافرة للّهو مع رجال آخرين. ولا يمرّ وقت طويل قبل أن يُقيم غراف علاقة معها. ذات ليلة، يكونان مضطجعَيْن معاً في السرير، يسألها عن لاند، وتؤكّد له تشارلوتا الشائعات. أجل، تقول، لاند ورجاله عبروا إلى الأراضي قبل عام ونيّف. لمَ تخبره بذلك؟ دوافعها غير بيّنة تماماً. ربّما لأنها معجبة بغراف، وتريد أن تعينه، أو ربّما لأن الكولونيل طلب منها ذلك لأسباب غير معلومة. هذا الجزء يجب معالجته بحصافة. لن يعرف القارئ على وجه اليقين ما إذا كانت تشارلوتا تجرّ غراف إلى مصيدة أم أنها تُثرثر لمتعتها الخاصّة. لا تنسَ أن هذه هي ألتيما، المركز الأكثر جفافاً في الكونفدرالية، والجنس والقمار والنميمة هي التسالي الوحيدة المتوافرة.

كيف يتمكّن غراف من عبور الحدود؟

لستُ واثقاً من ذلك. ربّما عن طريق رشوة ما. ليس هذا بالمهمّ حقاً. الأمر الهامّ هو أنه يعبر الحدود ذات ليلة، ويبدأ الجزء الثاني من القصّة. إننا في الصحراء الآن. فراغ شاسع، سماء شاسعة زرقاء، ضوء ساحق، ثمّ،

Tele: @Arab_Books

عندما تغيب الشمس، برد قارس، ترتعد له العظام. يتّجه غراف غرباً طوال أيّام عدّة، راكباً جواداً كستنائياً، اسمه وايتي، وقد سُمّي كذلك، بسبب بقعة بيضاء بين عينَيْه، وبما أن غراف يعرف المنطقة جيّداً من زيارته قبل اثنتَيْ عشرة سنة، فإنه يمضي باتّجاه غانغي، القبيلة التي انسجم معها أكثر من سواها خلال أسفاره السابقة، والتي وجدها الأكثر مسالمة بين الشعوب البدائية قاطبة. وفي وقت متأخّر من صبيحة أحد الأيّام، يقترب أخيراً من قرية الغانجي، وهي قرية صغيرة، بمساحة خمسة عشر أو عشرين هوغان، ممّا يُفترض أن تعداد سكّانها ما بين السبعين والمئة شخص. وحين يكون على بُعد ثلاثين ياردة تقريباً من أطراف المستعمرة، ينادي مُحيّياً بلسان الغانجي، لكي يُعلمهم بوصوله، لكنه لا يتلقّى ردّاً. شاعراً بالقلق الآن، يُسرّع غراف من سَيْر حصانه، ويدخل إلى قلب القرية، حيث لا يجد أيّ أثر على حياة بشرية هناك. يترجّل عن صهوة الحصان، ويمشي إلى أحد الهوغانات، ويزيح جلد ثور مائي، يؤدّي دور الباب إلى المنزل الصغير. لحظة دخوله، تُطالعه رائحة موت نافذة، الرائحة المقزّزة للأجساد المتحلّلة، وهناك، في الضوء الخافت للكوخ، يرى دزّينة من الغانجي المذبوحين، رجالاً ونساء وأطفالاً، وقد قُتلوا جميعاً بالأعيرة النارية بدم بارد. يُهرع إلى الخارج لتنشُّق الهواء، مُغطّياً أنفه بمنديل، ثمّ واحداً بعد الآخر، يدخل إلى الأكواخ جميعها. جميعهم موتى، كلّ فرد منهم، وبينهم يتعرّف غراف بعض الأشخاص الذين صادفهم قبل اثنَي عشر عاماً. الفتيات اللواتي بتنَ صبايا، الفتية الذين باتوا شبّاناً، الأهل الذين غدوا أجداداً، ولا واحد منهم يتنفّس، ولا واحد منهم سيكبر يوماً إضافياً واحداً.

ومَن المسؤول عن هذه الفعلة؟ أهو لاند ورجاله؟

صبراً، أيّها الطبيب. لا يمكن الاستعجال في سَرْد أمر كهذا. إننا نتكلّم

Tele: @Arab_Books

على الوحشية والموت، عن قَتْل الأبرياء، وغراف ما يزال يحاول التعافي من صدمة ما اكتشفه. ليس في حال تسمح له استيعاب ما جرى، ولكنْ، ولو كان الأمر كذلك، فما الذي يدعوه إلى الظنّ بأنّ لاند له أيّ صلة بالأمر؟ إنه يعمل على فَرَضية أن صديقه يحاول إشعال ثورة، وتشكيل جيش من البدائيّين سيغزو الأقاليم الغربية في الكونفدرالية. جيش من الموتى لا يسعه الإبلاء حسناً في الحرب، أليس كذلك؟ آخر ما يمكن أن يستخلصه غراف هو أن لاند قد قتل جنوده المستقبليّين.

عذراً، لن أقاطعكَ بعد الآن.

قاطعْ كما تشاء. إننا ضالعون في قصّة معقّدة هنا، وليس كلّ شيء كما يبدو عليه. خذْ مثلاً جنود لاند. لا فكرة لديهم عن مهمّتهم الحقيقية، لا يعرفون أن لاند هو عميل مُزدوَج يعمل لصالح وزارة الحرب. إنهم حفنة من الحالمين المتعلّمين؛ راديكاليون سياسيون معارضون للكونفدرالية، وحين قام لاند بتجنيدهم لكي يتبعوه إلى الأراضي الغريبة، صَدَّقوا كلامه مفترضين أنهم ذاهبون لكي يساعدوا البدائيّين ضدّ الأقاليم الغربية.

هل يعثر غراف على لاند؟

عليه ذلك، وإلا فلن تكون أيّ قصّة تستحقّ أن تُروى. لكنّ هذا لا يحدث إلا لاحقاً، بعد بضعة أسابيع أو أشهر. ولكنْ، بعد يومَيْن من مغادرة غراف قرية الغانجي المذبوحة، يصادف أحد رجال لاند، جنديّ مُهلوس تائه في الصحراء دون طعام ولا ماء ولا جواد. يحاول غراف مساعدته، ولكنْ، يكون قد فات الأوان، ولا يبقى الفتى على قيد الحياة إلا بضع ساعات أخرى. وقبل أن يستسلم لملاك الموت يهذي لغراف في سلسلة من الهذر الهذياني كيف أن الجميع ماتوا، وكيف أنهم لم يحصلوا قطّ على

Tele: @Arab_Books

فرصة، وكيف أن الأمر برمّته كان خدعة كبيرة منذ البداية. يعاني غراف في فَهْم ما يقوله. ما الذي يقصده بالجميع؟ أيقصد لاند وجنوده؟ أم الغانجي؟ أم قبائل بدائية أخرى. لا يجيب الفتى، وقبل أن تغرب شمس ذلك المساء، يكون قد فارق الحياة. يدفن غراف الجثّة، ويواصل طريقه، وبعد يوم أو يومَيْن، يصل إلى مستعمرة أخرى من مستعمرات الغانجي، وقد امتلأت هي الأخرى بالجثث. لا يعود يعرف ماذا يفكّر. ماذا لو كان لاند هو المسؤول في نهاية المطاف؟ ماذا لو كانت شائعة العصيان برمّتها مجرّد ستار لتغطية عمل آخر أكثر شرّاً بكثير: إعدام صامت للبدائيّين، وهو ما يُمكِّن الحكومة من فَتْح منطقتهم أمام استعمار البيض، وتوسعة حدود الكونفدرالية وصولاً إلى شواطئ المحيط الغربي؟ ومع ذلك، كيف لأمر كهذا أن يتمّ بمثل هذا العدد القليل من الجنود؟ مئة جندي للقضاء على عشرات الآلاف؟ هذا لا يبدو معقولاً، ومع ذلك، إذا لم يكن للاند صلة بالأمر، فإن التفسير الوحيد حينئذ هو أن الغانجي قُتلوا على يد قبيلة أخرى، وأن ثمّة حرباً أهلية بين البدائيّين.

Tele: @Arab_Books

يهمّ السّيّد بلانك بمواصلة الكلام، ولكنْ، قبل أن يتلفّظ بكلمة أخرى، يقاطعه والطبيب قرعٌ على الباب. وفي خضمّ استغراقه بتطوير القصّة، وشاعراً بالرضا لسَرْده نسخته من الأحداث المُتخيَّلة، يفهم السّيّد بلانك فوراً أنها اللحظة التي كان ينتظرها: لغز الباب سيُحلُّ أخيراً. ما إن يُسمع الطَّرْقَ، حتّى يلتفت فار باتّجاه الصوت. ادخلي، يقول، وبكل بساطة، يُفتح الباب، وتدلف امرأة، تدفع عربة من الفولاذ، ربّما هي نفسها التي استعملتْها آنا سابقاً، أو لعلّها أخرى مماثلة لها. لمرّة، كان السّيّد بلانك متيقّظاً، وبحسب فَهْمه، فإنه لم يسمع صوت قفل يُفتَح، لا شيء يشبه الرتاج أو المزلاج أو تكّة المفتاح، وهو ما يفترض أن الباب كان غير مُوصَد بادئ ذي بدئ، غير مُوصَد منذ البداية. أو هذا ما يظنّه السّيّد بلانك، وقد بدأ يبتهج بفكرة حُرّيّته في الدخول والخروج كما يشاء، ولكنْ، بعد هنيهة، يفهم أن الأمور ربّما لا تكون بمثل هذه البساطة. ربّما يكون الطبيب فار قد نسي إغلاق الباب لدى دخوله، أو، وهذا مرجّح أكثر، ربّما لم يتجشّم عناء إيصاده، مدركاً أنه لن يواجه أيّة مشكلة في السيطرة على السّيّد بلانك، إذا ما حاول الفرار. أجل، قال الشيخ في سرّه، هذا هو الجواب المرجّح. وهو، الذي لا يملك سوى التشاؤم حيال مستقبله، يستسلم ثانية لعيش حالة من الشّكّ الدائم.

مرحباً سام، تقول المرأة. عذراً على الدخول هكذا، لكنه وقت غداء السّيّد بلانك.

Tele: @Arab_Books

أهلاً، صوفي، يقول فار، ناظراً في الوقت عينه إلى الساعة، وناهضاً من السرير. لم أنتبه إلى تأخُّر الوقت.

ما الأمر؟ يقول السّيّد بلانك، مطرطقاً على ذراع الكرسي، ومتكلّماً بنبرة شكّاءة، أريد مواصلة الحكاية.

لقد نفد وقتنا، يقول فار. الاستشارة انتهت اليوم.

لكنني لم أنتهِ بعد! يصرخ الشيخ، لم أصل إلى النهاية.

أعرف، يجيب فار، ولكنّنا نعمل وفقاً لبرنامج ضيّق هنا، وليس في يدنا ما نستطيع فعْله حيال ذلك. سوف نواصل الحكاية غداً.

غداً، يقول السّيّد بلانك بمزيج من الريبة والارتباك. عمّ تتحدّث؟ غداً لن أتذكّر كلمة ممّا قلتُه اليوم. أنت تعرف ذلك، وحتّى أنا الذي لا يعرف شيئاً لعيناً، أعرف ذلك.

يقترب فار من السّيّد بلانك، ويربّت كتفه في حركة استرضاء كلاسيكية لشخص يجيد فنّ رعاية المرضى. حسناً، يقول، سأرى ماذا يمكنني فعْله. عليّ الحصول على إذن أوّلاً، ولكنْ، إذا كنتَ ترغب في عودتي هذا المساء، فإنني أستطيع تدبُّر ذلك، على الأرجح. موافق؟

موافق، يدمدم السّيّد بلانك، شاعراً بشيء من الهدوء جرّاء اللطافة والاهتمام النابعَيْن من صوت فار.

حسناً، سوف أرحل، إذن، يعلن الطبيب. أراكَ لاحقاً.

من دون التّلفُّظ بكلمة أخرى، يلوّح مودّعاً السّيّد بلانك، ثمّ تقوم المرأة المَدعوّة صوفي بالذهاب إلى الباب وفَتْحه وعبور العتبة وإقفال الباب

Tele: @Arab_Books

خلفه. يسمع السّيّد بلانك تكّة المزلاج، لكنه لا يسمع شيئاً آخر؛ لا جلبة ترباس، ولا مفتاحاً يدور في القفل، ويتساءل الآن ما إذا كان الباب ببساطة من تلك الأبواب التي تُقفَل بصورة آلية لحظة إغلاقها.

في أثناء ذلك، فإن السّيّدة المَدعوّة صوفي كانت منشغلة بجَرّ العربة الفولاذية بجانب السرير، وبنقل مختلف الأطباق التي يتكوّن منها غداء السّيّد بلانك من الرّفّ السفلي فيها إلى الرّفّ العلويّ. ويلاحظ السّيّد بلانك أن ثمّة أطباقاً أربعة، وأن كلّ طبق غُطّي بغطاء معدني دائريّ، يتوسّطه ثقب. وإذ يرى هذه الأغطية، فإنه يتذكّر فجأة خدمة الغرف في الفنادق، ممّا يجعله يفكّر كم ليلة أمضى في الفنادق خلال حياته. أكثر من أن تُعدّ، يسمع صوتاً يقول في داخله؛ صوتاً ليس صوته، على الأقلّ، لا يتعرّفه بوصفه صوته، ومع ذلك، وبما أنه يتكلّم بثقة وقناعة تامَّتَيْن، فإنه يُسلّم بأنه يقول الحقيقة. وإذا كانت هذه هي الحال، يفكّر، فلابدّ من أنه سافر كثيراً في حياته، مُتنقّلاً من مكان إلى آخر بالسّيّارات والقطارات والطائرات، وأجل، يقول في سرّه، لقد نقلتْه الطائرات حول العالم، إلى بلدان كثيرة عبر القارّات، ولا ريب في أن تلك الرحلات ذات صلة بالمهامّ التي أرسل كلّ أولئك الناس إليها، أولئك المساكين الذين عانوا أيّما معاناة بسببه، وهذا هو بكل تأكيد سبب احتجازه الآن في هذه الحجرة، وعدم السماح له بمزيد من السَّفَر، لكونه عالقاً بين هذه الجدران الأربعة عقاباً له على الأذى البالغ الذي ألحقه بالآخرين.

هذه الخاطرة العابرة يقطعها فجأة صوت المرأة.

جاهز لتناول الغداء؟

وإذ يرفع رأسه لكي يُلقي نظرة عليها، يلاحظ السّيّد بلانك أنه ما عاد

Tele: @Arab_Books

يذكر اسمها. إنها في منتصف الأربعينيات تقريباً أو بداية الخمسينيات، وعلى الرغم من أنه يجد وجهها ناعماً وجذّاباً في آن، فإن جسدها أكثر امتلاء واكتنازاً من أن تُعدّ امرأة مثالية. وللسجل، يجب القول إن ملابسها مماثلة لتلك التي كانت ترتديها آنا، في وقت سابق من اليوم.

أين آنا؟ يسألها السّيّد بلانك. ظننتُ أنها هي مَنْ يعتني بي.

وهو كذلك، تُجيب المرأة، إلا أنها اضطرّت للقيام ببعض المهامّ في اللحظة الأخيرة، فطلبتْ منّي القيام بذلك عنها.

هذا رهيب، يقول السّيّد بلانك، بصوت أقرب إلى النحيب. ليس لديّ شيء ضدَّكِ، بالطبع، أيّاً كنتِ، لكنني كنتُ أنتظر رؤيتها ثانية منذ ساعات. تلك المرأة هي كل شيء بالنسبة إليّ. لا أستطيع العيش من دونها.

أعرف ذلك، تجيب المرأة، كلنا يعرف ذلك، ولكنْ- وحينئذ تبتسم له ابتسامة ودودة -ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟ أخشى أنكَ عالقٌ معي.

للأسف، يتنهّد السّيّد بلانك. أنا واثق من حسن نواياكِ، لكنني لن أزعم عدم خيبة الأمل.

لستَ مضطرّاً إلى الزعم. لكَ الحقّ في أن تحسّ كما تشاء، سيّد بلانك. الخطأ ليس خطأكَ.

ما دمنا عالقَيْن معاً، كما تقولين، فأظنّ أنكِ يجب أن تخبريني مَنْ تكونين.

صوفي.

آه. هذا صحيح، صوفي. اسم جميل جداً. وهو يبدأ بحرف الصاد، صح؟

Tele: @Arab_Books

يبدو ذلك.

تذكّري، يا صوفي. أأنتِ الفتاة الصغيرة التي قبّلتُها عند البحيرة حينما كنتُ في العاشرة؟ كنّا قد أنهينا للتّوّ التّزلُّج على الجليد، ثمّ جلسنا على جذل شجرة، وقبّلتُكِ. لسوء الحظّ، لم تُقبّليني بدوركِ، بل ضحكتِ.

لا يعقل أن تكون هذه أنا، فحين كنتَ في العاشرة، لم أكن قد وُلدتُ بعد.

أأنا مُسنّ إلى هذه الدرجة؟

لستَ بالمُسنّ، لكنّكَ أكبر بكثير منّي.

حسناً. إنْ لم تكوني صوفي تلك، فأيّ صوفي أنتِ، إذن؟

بدلاً من أن تجيب عن سؤاله، تتّجه صوفي التي ليست تلك التي قبّلها السّيّد بلانك حينما كان في العاشرة، إلى المكتب، وتستخرج إحدى الصور الفوتوغرافية من كدسة الكُتُب، وتحملها في الهواء. هذه أنا، تقول. أنا حين كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري.

اقتربي، أنتِ بعيدة جداً.

بعد بضع ثوان، يكون السّيّد بلانك حاملاً الصورة بيَدَيْه. يتّضح أنها تلك التي أخذ يتأمّلها مطوّلاً في وقت سابق من اليوم، الصورة التي تمثّل الشّابّة التي فتحت الباب للتّوّ في ما يبدو شقّة نيويوركية.

كنتِ أنحفَ بكثير حينها، يقول.

منتصف العمر، سيّد بلانك، إنه يفعل أموراً غريبة بجسد الفتاة.

Tele: @Arab_Books

أخبريني، يقول السّيّد بلانك، مربتاً الصورة بسبّابته. ما الذي يجري هنا؟ مَنْ ذلك الشخص الواقف في الرواق؟ ولمَ تنظرين على هذا النحو؟ قلقة نوعاً ما مع أنكِ مسرورة في الوقت عينه، وإلا لما كنتِ تبتسمين.

تقرفص صوفي قرب السّيّد بلانك الذي ما يزال جالساً على الكرسي، وتمعن النَّظَر في الصورة بصمت لبضع ثوان.

هذا زوجي الثاني، تقول، وأظنّ أنها المرّة الثانية التي يأتي فيها لمقابلتي. في المرّة الأولى كنتُ أحمل طفلي حين فتحتُ الباب. أتذكّر هذا بوضوح، فلابدّ من أن هذه هي المرّة الثانية.

ولمَ يعتريكِ هذا القلق الشديد؟

لأنني لم أكن واثقة من مشاعره نحوي.

والابتسامة؟

لأنني كنتُ سعيدة برؤياه.

تقولين إنه زوجكِ الثاني، وماذا عن الأوّل، مَنْ يكون؟

رجل يُدعى فانشاو.

فانشاو ... فانشاو ... يدمدم السّيّد بلانك، أظنّ أننا بدأنا نصل إلى مكان ما.

بينما ما تزال صوفي جاثمة قربه، وصورتها الفوتوغرافية وهي شابّة ما تزال في حضنه، يميل السّيّد بلانك بكرسيه فجأة، وبأسرع ما يمكنه نحو المنضدة، ما إن يصل حتّى يضع الصورة فوق صورة آنا، ويتناول الحشية الصغيرة، ويفتحها على الصفحة الأولى، ومجرياً إصبعه على قائمة الأسماء،

Tele: @Arab_Books

يتوقّف حين يصل إلى اسم فانشاو، ثمّ يدور بكرسيه، لكي يواجه صوفي التي تكون قد وقفت حينئذ، وبدأت بالسير ببطء باتّجاهه.

آها، يقول السّيّد بلانك، مربتاً الحشية بإصبعه. عرفتُ ذلك. فانشاو له يد في هذا كله، أليس كذلك؟

لا أعرف ماذا تقصد، تقول صوفي، متوقّفة عند طرف السرير، ثمّ جالسة إلى حدّ ما على البقعة نفسها التي احتلّها من قبل جايمس ب. فلود. بالطبع له يد. كلنا ضالعون في هذا، سيّد بلانك، ظننتُ أنكِ على بيّنة من الأمر.

على الرغم من الإرباك الذي يبثّه جوابها في نفسه، إلا أنه يبذل قصارى جهده حتّى لا يضيّع حَبْلَ أفكاره. أسمعتِ يوماً بشخص يُدعى فلود؟ جايمس ب. فلود. رجل إنجليزي يتكلّم بلكنة أهل كوكني.

ألا تُفضِّل تناوُل غدائكَ الآن، سوف يبرد الطعام؟ تقول له.

لحظة واحدة، يردّ السّيّد بلانك، منزعجاً من تغييرها الموضوع. امنحيني لحظة فحسب. قبل أن نتكلّم على الطعام، أريدكِ أن تخبريني بكلّ ما تعرفينه عن فلود.

لا أعرف شيئاً. لقد سمعتُ بأنه كان هنا صباح اليوم، لكنني لم ألتقِهِ يوماً.

لكنّ زوجكِ ... زوجكِ الأوّل، أعني فانشاو ذاك ... كان يؤلّف الكُتُب، أليس كذلك؟ وفي أحد تلك الكُتُب، ذلك الذي عنوانه ... اللعنة ... لا أذكر العنوان ... نفر .. نفر شيء ما.

نفرلاند.

Tele: @Arab_Books

هذا هو. نفرلاند. استعمل فلود كإحدى الشخصيات، وفي الفصل ... في الفصل الثلاثين، على ما أظنّ، أو لعلّه الفصل السابع، يرى فلود حلماً.

لا أتذكّر، سيّد بلانك.

أتقولين لي إنكِ لم تقرئي كتاب زوجكِ؟

لا، قرأتُهُ، لكنْ، مضى وقت طويل على ذلك، ولم أقرأ الكتاب منذ ذلك الحين. على الأرجح أنكَ لن تفهم ذلك، ولكنْ، من أجل سلامي الداخلي، اتّخذتُ قراراً واعياً بألا أفكّر بفانشاو وعمله.

ما كان سبب انتهاء الزواج؟ هل توفيّ؟ هل طُلِّقتُما؟

تزوّجتُ منه حين كنتُ يافعة جداً. عشنا معاً بضع سنوات، وحبلتُ، ثمّ اختفى.

أحدث شيءٌ ما؟ أم أنه تعمّد هجركِ؟.

تعمّد ذلك.

لابدّ من أنه كان مجنوناً، ليتخلّى عن امرأة رائعة الجمال مثلكِ.

فانشاو كان رجلاً شديد الاضطراب. كانت لديه الكثير من الصفات الحسنة، إلا أنه في العمق كان ميّالاً لتدمير ذاته، وفي النهاية أفلح في ذلك. انقلب ضدّي، وانقلب ضدّ عمله، ثمّ خرج من حياتي، واختفى.

عمله؟ أتعنين أنه توقّف عن الكتابة؟

أجل، تخلّى عن كل شيء. كانت لديه موهبة عظيمة، سيّد بلانك، لكنه صار يكره ذلك الجزء من نفسه، وذات يوم توقّف ببساطة، استقال فحسب.

Tele: @Arab_Books

كانت هذه غلطتي، أليس كذلك؟

ما كنتُ لأذهب إلى هذا الحدّ. لقد لعبتَ دوراً في ذلك بالطبع، لكنكَ كنتَ تقوم بما عليكَ القيام به فحسب.

لابدّ من أنكِ تكرهينني.

لا، لا أكرهكَ. مررتُ بفترة عصيبة، بيد أن كل شيء سار بصورة حسنة في نهاية المطاف. تزوّجتُ ثانية، كما تتذكّر، وكان زواجاً ناجحاً، زواجاً مديداً وناجحاً. ثمّ هناك ولداي، بن وبول. لقد باتا بالغَينْ الآن. بن طبيب، وبول يدرس ليصبح عالم إناسة. ليس بالأمر السيّئ، إنْ رجع الأمر إليّ، أتمنى أن تتعرّف إليهما يوماً ما. أظنّ أنكَ ستكون فخوراً جداً.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الآن صوفي والسّيّد بلانك يجلسان جنباً إلى جنب على السرير، بمواجهة العربة الفولاذية التي تحتلّ سطحها الأطباق المتنوّعة، وقد غُطّي كلّ منها بغطاء معدني دائريّ، يتوسّطه ثقب. السّيّد بلانك قد حفّز شهيته، وبات توّاقاً الآن للبدء بالأكل، ولكنْ، قبل أن يلمس الطعام، تقول له صوفي إنّ عليه تناوُل حبوبه لفترة بعد الظهر. وعلى الرغم من التفاهم الذي نشأ بينهما خلال الساعات العديدة الماضية، وعلى الرغم من المَسرَّة التي يشعر بها السّيّد بلانك لقُربه الشديد من جسد صوفي الدافئ والوافر، فإنه يعترض على طلبها، ويرفض تناوُل الدواء. وفي حين أن الحبوب التي تناولها في الصباح كانت خضراء وأرجوانية وبيضاء، فإن الحبوب على سطح العربة زهريّة اللون وحمراء وبرتقالية. تشرح له صوفي أن هذه الحبوب مختلفة تماماً، وقد صُمِّمتْ لإحداث تأثير مختلف عن تلك التي تناولها قبلاً، وأن العلاج سيفشل ما لم يتناولها بالتفاعل مع الحبوب الأخرى. يفهم السّيّد بلانك، يفهم ما تقوله من دون أن يدفعه ذلك إلى تغيير رأيه، وتحمل صوفي الحبّة الأولى بين سبّابتها وإصبعها الوسطى، وتحاول إعطاءها له، فيهزّ السّيّد بلانك رأسه بعناد رافضاً تناوُلها.

من فضلكَ، تناشده صوفي. أعرف أنكَ جائع، ولكنْ، بهذه الطريقة أو تلك، فإن هذه الحبوب ستكون في جسدكَ قبل أن تقضم قضمة واحدة من هذا الطعام.

Tele: @Arab_Books

اللعنة على الطعام، يقول السّيّد بلانك بمرارة.

تتنهّد صوفي باستياء. اسمع، أيّها العجوز، تقول له، كلّ ما أريده هو مساعدتكَ. أنا واحدة من قلّة هنا يقفون إلى جانبكَ، ولكنْ، إذا أحجمتَ عن التعاون، فإنني أستطيع التفكير بعشرة رجال على الأقلّ، سيسرّهم الدخول إلى هنا، وإجباركَ على ابتلاع هذه الحبوب.

حسناً، يقول السّيّد بلانك، وقد بدأ يذعن نوعاً ما، إنما بشرط واحد.

شرط؟ عمَ تتكلّم؟

سوف أتناول الحبوب. ولكنْ، عليكِ أوّلاً أن تخلعي ملابسكِ، وتسمحي لي بأن أتحسّس جسدكِ.

تجد صوفي الاقتراح سخيفاً جداً، فتنفجر ضاحكة، دون أن تدرك أن صوفي الأخرى تجاوبتْ على هذا النحو في ظروف مشابهة لهذه الظروف قبل سنوات طويلة على ضفّة البحيرة المتجلّدة في فتوّة السّيّد بلانك. ثمّ، لكي تضع الملح على جرح الإهانة، فإنها تقول الكلمات القاتلة: لا تكنْ سخيفاً.

آه، يقول السّيّد بلانك، متراجعاً إلى الخلف، وكأنه تلقّى صفعة على الوجه. آه، يقول متأوّهاً، قولي ما شئتِ، يا امرأة، ولكنْ، لا تقولي ذلك، ليس هذه العبارة. قولي ما شئتِ إلا هذا.

وفي غضون ثوان، تمتلئ عينا السّيّد بلانك بالدمع، وقبل أن يدرك ماذا يحدث، تجري الدموع على وجنَتَيْه، وينخرط في بكاء مرير.

أنا آسفة، تقول صوفي، لم أقصد جرح مشاعركَ.

ما الخطأ في رغبتي النَّظَر إليكِ؟ يسألها السّيّد بلانك بصوت تخنقه

Tele: @Arab_Books

العبرات. لديكِ نهدان رائعان جداً، وكلّ ما أريده هو رؤيتهما، ولمسهما. أريد أن أتحسّس بشرتكِ، وأن أجري يديّ على شعر عانتكِ. ما الرهيب إلى هذه الدرجة في هذا؟ لن أؤذيكِ. لا أريد سوى بعض الرقّة. بعد كلّ ما جرى لي في هذا المكان، أكثير أن أطلب هذا؟

حسناً، تقول صوفي متفكّرة، وقد اعتراها شيء من التعاطف مع محنة السّيّد بلانك، ربّما يمكننا الوصول إلى تسوية ما.

من قبيل؟ يسألها السّيّد بلانك، وهو يمسح دموعه بظاهر كفّه.

من قبيل ... من قبيل أن تتناول الحبوب، وكلّما تناولتَ واحدة، سوف أسمح لك بأن تلمس نهديّ.

نهدان عاريان؟

لا، أفضّل الإبقاء على كنزتي.

هذا ليس بكاف.

حسناً، سوف أخلع الكنزة، ولكنّ الصدرية تبقى، مفهوم؟

ليس بالفردوس تماماً، ولكنْ، أظن أنّ عليّ القبول بذلك.

وهكذا تُحلّ المسألة. صوفي تخلع الكنزة، وبينما تفعل ذلك، فإن السّيّد بلانك يتشجّع، إذ يرى أن الصدرية من النوع الشّفّاف المُخرّم، لا تلك الصدريات التي ترتديها المُسنّات وغيرهنّ ممّنْ تخلّينَ عن الحبّ الجسدي. النصفان العلويان من نهديّ صوفي المدوَّرَيْن الوافرَيْن مكشوفان، وحتّى إلى الأسفل، فإن مادّة الحمالة رفيعة جداً، ممّا يسمح له برؤية الحلمَتَيْن البارزَتَيْن بوضوح عبر النسيج. ليس بالفردوس تماماً،

Tele: @Arab_Books

يقول السّيّد بلانك محدّثاً نفسه، وهو يتناول الحبّة الأولى مع جرعة ماء، بل على العكس إنه أمر مُرض تماماً. ثمّ يضع يدَيْه عليهما -يده اليسرى على النهد الأيمن، واليمنى على النهد الأيسر، وبينما يتحسّس كتلة ونعومة نهدَي صوفي المترهّلَيْن، ولكنْ، النبيلَيْن نوعاً ما، فإنه يسرّ أكثر حين يلاحظ أنها تبتسم، ربمّا ليس استمتاعاً، إنما من باب المرح، مُظهِرةً بالتالي أنها لا تحمل تجاهه أيّ سوء نيّة، وأنها تتعامل مع هذه المغامرة باعتبار كبير.

إنكَ شيخ قذر، سيّد بلانك، تقول له.

أعرف، يجيب، لكنني كنتُ شابّاً قذراً أيضاً.

يكرّران الأمر مرَّتَيْن إضافيَّتَيْن، ابتلاع حبّة الدواء، ثمّ لقاء شهيّ آخر مع النهدَيْن، ثمّ تُعاود صوفي ارتداء كنزتها، ويحين أوان تناوُل الطعام.

لسوء الحظّ، فإن التودُّد المتكرّر تجاه جسد امرأة مُشتهاة قد تسبّب بتغيّر مُتوقَّع في جسد المتودِّد نفسه. وها هو صاحب السّيّد بلانك القديم ينهض ثانية، ولأن بطلنا ما عاد يرتدي السروال القني، والملابس التحتيّة، وهو عار تماماً تحت سروال البيجاما، فليس ما يحول دون بروز رأس السّيّد الكبير عبر فتحة السروال. وهذا يحدث في اللحظة نفسها التي تميل فيها صوفي لكي ترفع الأغطية المعدنية عن الأطباق، وبينما تنحني لكي تضعها في الرّفّ السفليّ، فإن عينَيْها تكونان على بُعد إنشات معدودة من المجرم العتيد.

انظر إليكَ، تقول صوفي مخاطبة عضو السّيّد بلانك المنتصب، سيّدكَ يعتصر نهدَيّ مرّات قليلة، وإذا بكَ جاهز تماماً للحركة. انسَ الأمر، يا صاح، فالمرح قد انتهى.

أستميحكِ عذراً، يقول السّيّد بلانك، وقد شعر بحَرج فعْليّ هذه المرّة من تصرُّفه. لقد برز من تلقاء ذاته. لم أكن أتوقّع ذلك.

Tele: @Arab_Books

لا حاجة للاعتذار، تجيب صوفي. فقط أعدْ هذا الشيء إلى سروالكَ، ولنشرع بعملنا.

والعمل في هذه الحالة هو غذاء السّيّد بلانك الذي يتكوّن من زبدية صغيرة من حساء الخضار الذي غدا فاتراً بعض الشيء، وشطيرة بخبز التوست الأبيض، وصلصة الطماطم، وكوب من الجلو الأحمر. لن نقدِّم سَرْداً مُطوَّلاً حول تناوُل الوجبة، إلا أن ثمّة حادثة واحدة تستأهل الذِّكْر. كما كانت الحالة بعد تناوُل السّيّد بلانك حبوب الإفطار صباحاً، فإن يدَيْه تبدآن بالارتعاش تلقائياً لحظة شروعه في تناوُل الطعام. ربّما تكون هذه الحبوب مختلفة، وتهدف إلى نتائج مختلفة، ولها ألوان أخرى، بيد أنها فيما يخصّ التّسبُّب بارتعاش اليدَيْن، فإن تأثيرها مماثل. يبدأ السّيّد بلانك بالحساء. وكما قد يتخيّل المرء، فإن الرحلة الافتتاحية للملعقة من الزبدية إلى فم السّيّد بلانك هي رحلة شاقّة، ولا تصل ولو قطرة منها إلى وجهتها. ودون خطأ منه، فإن محتوى الملعقة ينهمر على قميص السّيّد بلانك الأبيض.

يا إلهي، يقول، لقد فعلتُها ثانية.

وقبل التّمكّن من مواصلة تناوُل الوجبة، أو بالأحرى من البدء بتناوُلها، يضطرّ السّيّد بلانك إلى نزع القميص، وهو آخر قطعة ملابس بيضاء يرتديها، ويستبدل بها سترة البيجاما، ليعود إلى الملابس نفسها التي كان يرتديها في مستهلّ هذا التقرير. إنها لحظة محزنة بالنسبة إلى السّيّد بلانك، إذ لم يعد ثمّة الآن أيّ أثر من جهود آنا الرقيقة والدقيقة لإلباسه وإعداده لليوم. والأسوأ من ذلك، أنه نكث تماماً بعهده بارتداء الملابس البيض.

وكما فعلتْ آنا من قبل، فإن صوفي تأخذ الآن على عاتقها إطعامه،

Tele: @Arab_Books

وعلى الرغم من أنها لا تقلّ صبراً ولا لطافة معه من آنا، فإن السّيّد بلانك لا يحبّ صوفي بقدر حبّه لآنا، وبالتالي فإنه يلتفت نحو بقعة في الجدار البعيد، وهي تجلب الملاعق والشُّوَك المحمّلة بالطعام إلى فمه زاعماً أنها آنا الجالسة إلى جواره الآن، وليس صوفي.

أتعرفين آنا جيّداً؟ يسألها.

التقيتُها قبل بضعة أيّام فحسب، لكنّنا تحدّثنا ثلاث أو أربع مرّات. إننا مختلفتان تماماً، لكننا نتّفق كُلّيّاً في الأمور الهامة حقاً.

مثل ماذا؟

مثلكَ أنتَ، سيّد بلانك.

ألهذا طلبتْ منكِ الحلول محلّها بعد ظهر اليوم؟

أظنّ ذلك.

لقد كان يومي مريعاً حتّى الآن، إلا أن العثور عليها ثانية قد أفادني كثيراً. لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل من دونها.

وهي تشعر كذلك تجاهكَ.

آنا ... ولكنْ، آنا ماذا؟ لقد حاولتُ لساعات تذكُّر اسم عائلتها. أظنّ أنه يبدأ بحرف الباء، ولكنني لا أستطيع تذكُّر شيء آخر.

بلوم. اسمها آنا بلوم.

بالطبع! يهتف السّيّد بلانك ضارباً جبهته بباطن كفّه. ما الذي أصابني؟ لقد عرفتُ هذا الاسم طوال حياتي. آنا بلوم. آنا بلوم. آنا بلوم ...

Tele: @Arab_Books

الآن صوفي رحلتْ. والعربة الفولاذية رحلتْ، والقميص المبقّع بالحساء رحل، والملابس الرطبة المتّسخة من المغسلة رحلتْ، ومجدّداً، وبعد أن تبوّل بصورة مناسبة هادئة في الحمّام بمساعدة صوفي، فقد عاد السّيّد بلانك وحيداً، يجلس على طرف السرير الضّيّق، واضعاً يدَيْه على ركبتَيْه، مُطرق الرأس، يُحملق بالأرض. يستذكر تفاصيل زيارة صوفي، مُؤنّباً نفسه، لأنه لم يسألها شيئاً عن الأمور التي تهمّه حقّاً. أين هو على سبيل المثال. وما إذا كان مسموحاً له التّنزُّه في الحديقة دونما إشراف من أحد. وأين هي الخزانة، إذا كان من وجود لها أساساً، ولمَ لا يستطيع العثور عليها. هذا ناهيك عن لغز الباب الأبدي – وما إذا كان مُوصَداً من الخارج أم لا. لمَ تردَّد في تعرية روحه أمامها، يتساءل، وهي ذلك الشخص المتعاطف الذي لا يحمل ضغينة ضدّه؟ أهي بساطة مسألة خوف؟ أم أن للأمر صلة بالعلاج، ذلك العلاج الضارّ الموهن الذي جرّده ببطء من المقدرة على الوقوف بمفرده وخوض معاركه بنفسه؟

مُشوّش الفكر، ينفض السّيّد بلانك كتفَيْه، ويضرب ركبتَيْه بيدَيْه، وينهض عن السرير. بعد بضع ثوان، يكون جالساً إلى المنضدة والقلم الكرويّ بيده اليمنى والحشية الصغيرة أمامه، وقد فُتحت على الصفحة الأولى. يبحث في القائمة عن اسم آنا، ويجده في السطر الثاني مباشرة تحت جايمس ب. فلود، ويكتب الحروف ب. ل. و. م، مغيّراً الاسم من

Tele: @Arab_Books

آنا إلى آنا بلوم. وبعد ذلك، ولأن جميع الأسطر في الصفحة الأولى قد امتلأت، يقلبها، ويضيف اسمَينْ إلى القائمة:

جون تراوز.

صوفي.

بينما يغلق الحشية، يُصعق السّيّد بلانك، إذ يدرك أنه تذكَّر اسم تراوز دونما أيّ جهد. بعد الكثير من المعاناة والإخفاقات لكي يتذكّر الأسماء والوجوه والأحداث، يعدّ هذا انتصاراً بامتياز. يتأرجح إلى الأمام والخلف على الكرسي احتفاء بإنجازه هذا، متسائلاً ما إذا كانت حبوب بعد الظهر هي المسؤولة على نحو ما على صَدّ فقدانه الذاكرة خلال الساعات السابقة، أم ما إذا كانت مجرّد ضربة حظّ، أحد تلك الأمور غير المتوقّعة التي تقع لنا دونما سبب محدّد. أيّاً كان السبب، فإنه يقرّر الآن مواصلة التفكير في القصّة، في ترقُّب لزيارة الطبيب في المساء، بما أن فار أخبره بأنه سيبذل قصارى جهده للسماح له بمواصلة القصّة حتّى النهاية – ليس في الغد بعد أن يكون السّيّد بلانك قد نسي حتماً كل ما عاشه حتّى الآن، بل اليوم. غير أنه، وبينما يواصل الشيخ التأرجح على الكرسي، يقع بصره على اللصاقة البيضاء على المنضدة. لقد نظر إلى هذه اللصاقة ما لا يقلّ عن خمسين أو مئة مرّة خلال اليوم، وكل مرّة كان يجد كلمة "منضدة" عليها. ولكنْ، الآن، لذهوله، فإنه يجد بدلاً منها كلمة مصباح. ردّة فعْله الأولى تتلخّص في حسبان أن عينَيْه قد خانتاه على نحو ما، لذا يتوقّف عن التأرجح على الكرسيّ، لكي يُلقي نظرة عن كثب. ينحني إلى الأمام، ويخفض رأسه حتّى يكاد أنفه يلامس اللصاقة، ويأخذ بتأمُّلها بأناة. ولِكَدَرِه الشديد يجد أنها ما تزال الكلمة عينها: مصباح.

بإحساس متعاظم بالقلق، ينهض السّيّد بلانك بسرعة عن الكرسي،

Tele: @Arab_Books

ويبدأ بالسير في الغرفة، متوقّفاً عند كلّ لصاقة بيضاء على كلّ غرض، لكي يتبيّن ما إذا كانت قد تغيّرت. وبعد التّملّي في الأمر، يرعبه أن يكتشف أنه لم تعد أيّ من اللصاقات تشغل موضعها السابق. فالجدار كُتب عليه الآن "مقعد"، والمصباح "حمّام" والكرسيّ "منضدة". تفسيرات عديدة تتزاحم في رأس السّيّد بلانك. لقد عانى من جلطة أو إصابة في الدماغ؛ لقد فَقَدَ مقدرته على القراءة؛ أحدهم يمارس عليه حيلة لئيمة. ولكنْ، إذا كان ضحيّة مزحة ما، يسأل نفسه، فَمَن المسؤول عن هذه المزحة؟ أناس عدّة زاروا الحجرة خلال الساعات القليلة الماضية: آنا، فلود، فارّ، وصوفي. يستبعد أن تكون أيّ من المرأتَيْن قد فعلتْ ذلك به، إلا أنه من الصحيح أنه كان شارد الذهن حين دخل فلود، كما أنه كان في الحمّام حين دخل فار، لكنه لا يستطيع أن يتخيّل كيف تسنّى لأيّ منهما القيام بعملية التبديل المُطوَّلة هذه قياساً بالفترة القصيرة التي غابا فيها عن ناظريه – بضع ثوان على الأكثر، أيّ أنه وقت يكاد لا يكفي لأيّ شيء. يعرف السّيّد بلانك أنه ليس في أفضل أحواله، وأن عقله لا يعمل كما يجدر به أن يفعل، ولكنه يعرف أيضاً أنه الآن ليس بأسوأ حالاً ممّا كان عليه في بداية اليوم، وهو ما يتعارض مع نظرية الجلطة الدماغيّة، وإن كان قد فَقَدَ مقدرته على القراءة، فكيف أمكنه إضافة الاسمَيْن الأخيرَيْن إلى القائمة؟ يجلس على طرف السرير الضّيّق متسائلاً إن كان قد غاب عن الوعي لبضع دقائق بعد مغادرة صوفي الحجرة. لا يتذكّر أنه أغفا، غير أنه في نهاية المطاف التفسير المنطقيّ الوحيد. دخل شخص خامس إلى الحجرة، شخص غير آنا أو فلود أو فارّ أو صوفي، وبدّل اللصاقات خلال رحلة السّيّد بلانك الوجيزة، التي نسيها الآن، إلى النسيان.

ثمّة عدوّ يطوف خلسة في المكان، يقول السّيّد بلانك في سرّه، وربّما كان العديد من الأعداء يعملون معاً، بهدف وحيد، وهو بَثّ الرعب

Tele: @Arab_Books

في قلبه، وتضليله، وجعله يظنّ أنه يفقد عقله، وكأنهم يحاولون إقناعه بأن الكائنات الطيفية في رأسه قد تحوّلتْ أشباحاً حيّة، أرواحاً معدومة الأجساد، عُبِّئَتْ، لتغزو حجرته الصغيرة، وتُسبّب أكبر قدر ممكن من الدمار. إلا أن السّيّد بلانك رجل مُنظَّم، وتُشعره الأعمال الصبيانية التي يقوم بها آسروه بالمهانة. وبناء على خبرته الطويلة، بات يُقدِّر قيمة الدّقّة والوضح في كلّ شيء، وخلال السنوات التي كان يرسل فيها عملاءه في مهمّاتهم المختلفة حول العالم، لطالما عانى في كتابة تقاريره المتعلّقة بأنشطتهم، بلغة لا تخون الحقيقة حول ما رأوه وفكّروا به وأحسّوه في كلّ واحدة من خطواتهم. فلن ينفع إذن تسمية كرسيّ منضدة أو منضدة مصباحاً. فالانغماس في مثل هذه النزوات الطفولية من شأنه بَثّ الفوضى في العالم، وجعل الحياة لا تُطاق بالنسبة إلى الجميع ما عدا المجانين. لم يصل السّيّد بلانك بعد إلى المرحلة التي يعجز فيها عن تذكُّر أسماء الأشياء، ولكنْ، لا ريب في أن حاله تتدهور، وهو يُدرك أنه قد يأتي يوم، ربّما يكون قريباً، ربّما حتّى في الغد، حين يذوي دماغه أكثر، وسيغدو من الضروري بالنسبة إليه أن تكون أسماء الأشياء في مواضعها الصحيحة، لكي يتمكّن من تعرُّفها. وبالتالي يقرِّر إزالة الضرر الذي تسبَّب به عدوُّه غير المنظور، ويُعيد كلّ لصاقة مبعثرة إلى مكانها الصحيح.

يتطلّب إنهاء هذه المهمّة وقتاً أكثر ممّا ظنّ في البداية، إذ سرعان ما يدرك أن الأشرطة التي كُتبت عليها الكلمات تتمتّع بقوى التصاق، تكاد تفوق الطبيعة، ولنزع إحداها عن السطح الذي أُلصقت به، يتطلّب منه تركيزاً وجهداً وافرَيْن. يبدأ السّيّد بلانك باستعمال ظفر إبهامه الأيسر، لكي ينزع اللصاقة الأولى (كلمة جدار، التي حطّتْ على لوح من البلوط تحت السرير)، لكنْ، ما إن يتمكن من إدخال ظفره تحت الطرف الأيمن من اللصاقة حتّى ينكسر طرف ظفره. يحاول ثانية بظفر إصبعه الوسطى،

Tele: @Arab_Books

وهو أقصر إلى حدّ ما، وبالتالي أقلّ هشاشة، وبدأب يعمل على ذلك الركن الأيمن حتّى ينزع ما يكفي من اللصاقة عن السرير، ممّا يُمكّنه من وضع جزء صغير بين إبهامه وإصبعه الوسطى، وناتراً بلطف، لكي لا يتسبّب بافتلاع اللصاقة، يقوم بنَتْر اللصاقة كلها عن اللوح البلوط. لحظة مُرضية، أجل، إلا أنها تطلّبتْ دقيقتَيْن كاملتَيْن من التحضير المضني. وأخذاً في الاعتبار أن ثمّة اثنتَي عشرة لصاقة بالإجمال، وأن السّيّد بلانك يكسر ثلاثة أظافر إضافية خلال العملية (وبالتالي مُقلِّصاً عدد الأصابع الممكن استخدامها إلى ستّة)، فسوف يفهم القارئ لماذا استغرقه أكثر من نصف ساعة لإنجاز المهمّة.

هذه الجهود الشاقّة أنهكت السّيّد بلانك، وبدلاً من أن يتوقّف لكي يُلقي نظرة إعجاب على عمله (الذي مهما بدا صغيراً وعديم الأهمّيّة، هو بالنسبة إليه لا يقلّ عن العمل الرمزي لترميم التناغم في كون ممزّق)، يمضي متثاقلاً إلى الحمّام، لكي يغسل وجهه من العَرَق. يُعاوده ذلك الدوار، ويتشبّث بالمغسلة بيسراه، في حين يرشّ المياه على وجهه بيمناه. وفي الوقت الذي يُقفل فيه الصنبور، ويمدّ يده نحو المنشفة، يشعر فجأة بأنه أسوأ حالاً، أكثر سوءاً ممّا كان عليه طوال اليوم. تبدو المشكلة في مكان ما من معدته، إلا أنه وقبل أن يتمكّن من لفظ كلمة معدة لنفسه، فإن المشكلة تبدأ بالصعود عبر قصبته الهوائية، مصحوبة بحكاك مزعج في فكَّيْه. يتشبّث غريزياً بالمغسلة بكلتا يَدَيْه، ويخفض رأسه لمحاولة السيطرة على الغثيان المفاجئ الذي سيطر عليه فجأة. يواجهه لثانية أو اثنتَيْن، مُصلّياً أن يتمكّن من صَدّ الانفجار المقبل، لكنها قضية خاسرة، ولا تمرّ هنيهة أخرى حتّى يتقيّأ في المغسلة. لقد دسّوا لي السّمّ! يصرخ السّيّد بلانك لحظة انتهاء المحنة. لقدّ سمَّمني أولئك الوحوش!

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

حين يُستأنف السَّرْد، يكون السّيّد بلانك ممدَّداً على السرير ناظراً إلى السقف الأبيض حديث الطلاء. الآن وقد خرجت السموم القاتلة من جسده، فإنه يحسّ بالطاقة، وقد سُحبتْ منه، وغدا أشبه بالميت جرّاء نوبة التقيُّؤ والتّهوُّع والنحيب الوحشية التي كان الحمّام مسرحها قبل دقائق معدودات. ومع ذلك، إنْ كان مثل هذا الأمر محتمَلاً، فإنه يحسّ أيضاً بأنه أفضل حالاً، وأكثر هدوءاً في أعماق ذاته الواهنة، أكثر استعداداً لمواجهة المحن الجاثمة قدماً لا محالة.

وبينما يواصل السّيّد بلانك تأمُّل السقف، فإن بياضه يشكِّل شيئاً فشيئاً صورة، وبدلاً من النَّظَر إلى السقف، يتراءى له أنه يُحدِّق بورقة بيضاء. لمَ يحدث ذلك؟ لا فكرة لديه، ولكنْ، للأمر صلة بأبعاد السقف، وهو مستطيل، وليس مُربّعاً، ممّا يعني أن الحجرة مستطيلة، وغير مُربَّعة أيضاً، وعلى الرغم من أن السقف أكبر بكثير من الورقة، فإن نسبه مشابهة لصفحة الورق مقاس ثمانية ونصف بأحد عشر إنشاً. وإذ يستغرق في هذه الفكرة، فإن شيئاً ما يتحرّك في داخله، ذكرى بعيدة، لا يسعه تحديدها، إذ تنفصل عنه كلّما اقترب منها أكثر، ولكنْ، من خلال ذلك السديم الذي يُعوِّق الرؤية الواضحة في رأسه، يشكِّل بصورة غامضة ملامح رجل، هو بلا ريب نفسه، جالساً إلى منضدة، يضع ورقة في آلة كاتبة يدويّة. لعلّه أحد التقارير، يحدِّث نفسه بصوت مرتفع، متكلّماً بصوت هامس، ثمّ يتساءل

Tele: @Arab_Books

كم مرّة لابدّ من أنه كرّر تلك الحركة، كم مرّة على مرّ السنين، مدركاً أن ذلك لم يكن يقلّ عن آلاف المرّات، آلاف وآلاف المرّات، عدد أكبر من الأوراق، ممّا يمكن لإنسان أن يحصي عدده في يوم أو أسبوع أو شهر.

تفكيره في الآلة الكاتبة يُذكِّره بالنصّ المطبوع الذي قرأه في وقت سابق من اليوم، والآن قد تعافى إلى حدّ ما من العمل المضني المتعلّق بنَزْع اللصاقات البيض، وإعادتها إلى مكانها الصحيح في الغرفة، والآن وقد انتهت المعركة التي اندلعتْ بعنف شديد في معدته، فإنه يتذكَّر أنه كان يزمع مواصلة القصّة، ووَضْع خاتمة لها استعداداً للزيارة الإضافية التي سيقوم بها طبيبه مساء اليوم. مواصلاً الاستلقاء بعينَيْن مفتوحَتَيْن على السرير، يفكّر لوهلة ما إذا كان يواصل القصّة بصمت، أي أن يرويها لنفسه فحسب، أم أن يواصل ارتجال الأحداث بصوت مرتفع، ولو لم يكن من أحد في الغرفة يتابع ما يقوله. ولأنه يشعر على نحو خاصّ بالوحدة الآن، وشاعراً بالانسحاق تحت ثقل عزلته المفروضة عليه، فإنه يقرِّر ادّعاء أن الطبيب موجود في الغرفة معه، ويواصل كالسابق، أي أنه يسرد القصّة بصوته بدلاً من مجرّد التفكير بها في رأسه.

هلا واصلنا؟ يقول. الاتّحاد. سيغموند غراف. الأراضي الغريبة. إرنستو لاند. ما هي السنة في هذا المكان المُتخيَّل؟ الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، على ما أظنّ. لا قطارات، لا برقيّات. الناس يتنقّلون بالجياد، وينتظرون أكثر من ثلاثة أسابيع وصول رسالة. يشبه هذا الاتّحاد أمريكا إلى حدّ كبير، إلا أنه ليس مماثلاً لها. لا عبيد سود مثلاً، على الأقلّ، لا ذِكْر لذلك في النصّ. ولكنْ، ثمّة تنوّع عِرْقيّ أكبر في تلك الحقبة التاريخية. أسماء ألمانية وفرنسية وإنجليزية وإسبانية. حسناً، أين أصبحنا الآن؟ غراف في الأراضي الغريبة بحثاً عن لاند الذي قد يكون وقد لا يكون

Tele: @Arab_Books

عميلاً مُزدَوَجاً، والذي قد يكون وقد لا يكون فارّاً مع زوجة غراف وابنته. فلنتراجع قليلاً. أظنّ أنني مضيتُ بسرعة أكبر من اللازم من قبل، وقفزتُ سريعاً إلى الاستنتاجات. بحسب جوبيرت، فإن لاند خائن للاتّحاد، شكّل جيشاً خاصّاً به للمساعدة على قيادة البدائيّين في غزو الأقاليم الغربية. بالمناسبة، أمقتُ هذه الكلمة، البدائيّين، إنها مُسطَّحة جدّاً، وحادّة جداً، وتفتقر إلى التميز. فلنحاول التفكير في كلمة أكثر ثراء. إمممم ... لا أعرف، ربّما شيء من قبيل، أهل الروح. لا. ليست جيّدة. أهل الدولمن. أهل الأولمن. أهل التولمن. رهيب. ما خطبي؟ الجنّ. هذه هي. الجنّ. تحمل شبهاً مع كلمة "إنجن"، إنما مع دلالات إضافية. حسناً، إذن، أهل الجنّ. جوبيرت يظنّ أن لاند في الأراضي الغربية، لكي يقود أهل الجنّ في هجوم على الأقاليم الغربية. لكنّ غراف يرى أن الأمر أعقد من ذلك. لماذا؟ لأنه يعتقد، على سبيل المثال، أن لاند مخلص للاتّحاد. ولسبب آخر، هو كيف يعقل أن يكون لاند قد عبر الحدود مصحوباً بمئة رجل، من دون علم الكولونيل دي فيغا؟ دي فيغا يزعم أنه لا يعرف شيئاً عن الأمر، لكنّ شارلوتا أخبرتْ غراف أن لاند دخل الأراضي قبل أَزْيَدَ من عام، وما لم تكن تكذب، فإن فيغا مُتورِّط في المؤامرة. أو- وهذا أمرٌ لم أفكّر به قبلاً - لاند رشا دي فيغا بمبلغ كبير من المال، والكولونيل ليس مُتورِّطاً على الإطلاق. لكنّ هذا لا صلة له البتّة بغراف الذي لا يشكّ أبداً باحتمال الرشوة. فبحسب منطق تفكيره، لاند دي فيغا والجيش برمّته يخطّطون لافتعال حرب مع أهل الجنّ، لكي يشدّوا من أواصر الاتّحاد. ربّما ينوون القضاء على أهل الجنّ في خضمّ ذلك، وربّما لا. في الوقت الحالي، ثمّة احتمالان فحسب: قصّة جوبيرت، وقصّة غراف. وإذا كانت هذه القصّة ستُشكِّل أيّ معنى، فيجب أن يكون هنالك تفسير ثالث، شيء لم يكن أحد يتوقّعه. وإلا فإن أحداثها مُتوقَّعة أكثر من اللازم.

Tele: @Arab_Books

حسناً، يواصل السّيّد بلانك، بعد توقُّف قصير لجَمْع شتات أفكاره. غراف وصل إلى قريَتَيْن من قرى الغانجي، وقد ذبح سكّان القريَتَيْن. ودفن الجنديّ الأبيض الذي كان يهذي، ولم يعد يعرف الآن ماذا يفكّر. في الوقت الحالي، وبينما يشقّ طريقه ببطء نحو لاند، فلنفصّل السؤالَيْن الأساسيَّيْن اللذَيْن واجههما. السؤال المهني والسؤال الخاصّ. ما الذي يفعله لاند في الأراضي الغريبة؟ وأين زوجته وابنته؟ لأكون صادقاً تماماً، هذا الموضوع المنزلي يعييني. يمكن حَلُّه في واحدة من طُرُق عدّة. أولاً: بياتريس ومارتا فرّتا مع لاند. إذا وجدهم لاند معاً، فإنه يتعهّد بقَتْل لاند. إمّا أن ينجح في ذلك، وإمّا لا ينجح، ولكنْ، في تلك المرحلة تتحوّل القصّة إلى ميلودراما بسيطة، تتعلّق بديّوث يدافع عن شرفه. ثانياً: بياتريس ومارتا فرّتا مع لاند، لكنّ بياتريس توفّيت – إمّا بسبب تأثيرات وباء الكوليرا، وإمّا بسبب مشاقّ العيش في الأراضي الغريبة. فلنفترض أن مارتا التي بلغت الآن السادسة عشرة، وقد باتت امرأة، وهي تسافر مع لاند بصفتها عشيقته. ما الذي يفعله غراف في هذه الحالة؟ أما يزال سيحاول قَتْل لاند، قَتْل صديقه القديم، في حين ترجوه ابنته الوحيدة الإبقاء على حياة حبيبها؟ أوه، أبي، أرجوكَ، أبتاه، لا تفعلْ ذلك! أم أن غراف يُبقي ما في القلب في القلب، وينسى الأمر برمّته؟ بطريقة أو أخرى، فإن الأمر لن يُمحى بسهولة. ثالثاً: بياتريس ومارتا فرّتا مع لاند، لكنهما توفّيتا كلتاهما. لاند لن يذكر اسمَيْهما أمام غراف، وهذا العنصر في القصّة يتحوّل إلى رنكة حمراء ميتة. من الجليّ أن تراوز كان يافعاً حين كتب هذا النصّ، ولستُ متفاجئاً من أنه لم يقمْ بنشرها. لقد حشر نفسه في الزاوية من خلال شخصيَّتَي المرأتَيْن. لا أعرف أيّ حلّ خرج به، لكنني أراهن بأنه اختار الحلّ الثاني، وهو بقدر سوء الأوّل والثالث. بقدر ما يعنيني الأمر، فسوف أنسى سريعاً بياتريس ومارتا. فلنقل إنهما توفّيتا بالكوليرا، وندع الأمر هنا. مسكين غراف، بالطبع، ولكنْ، إذا أردتَ أن تروي قصّة جيّدة، عليكَ ألا تبدي أيّة رحمة.

Tele: @Arab_Books

حسناً، يقول السّيّد بلانك، متنحنحاً وهو يحاول التقاط خيط السَّرْد، أين نحن الآن؟ غراف. غراف وحيداً. غراف يطوف الصحراء على متن جواده، الفَرَس الأصيلة وايتي، بحثاً عن إرنستو لاند المتملّص ...

يتوقّف السّيّد بلانك. فكرة جديدة طرأتْ له، فكرة شيطانية، انعكاس مُدمِّر، بَثَّ موجة من المتعة في جسده، من أخمص قَدَمَيْه إلى كلّ خلية في جسده. في برهة واحدة، اتّضحتْ له المسألة برمّتها، وبينما يتأمّل الشيخُ العواقبَ المزعزعة لما يعرف الآن أنه الخيار الحتميّ، فإن الخيار الوحيد المتاح له ضمن مجموعة من الاحتمالات المتصارعة، يبدأ بالضرب على صدره، وركَلَ قَدَمَيْه، وهَزَّ كتفَيْه، وهو يطلق ضحكة عارمة غير مُسيطَر عليها.

لحظة، يقول السّيّد بلانك، رافعاً يده لمناظره المُتخيّل. انسَ كلّ ما سبق. لقد عرفت الآن. فلنعد إلى البداية، أي إلى الجزء الثاني، إلى بداية الجزء الثاني عندما تسلّل غراف عبر الحدود إلى الأراضي الغريبة. انسَ المجزرة المرتكَبة بحقّ الغانجي. انسَ المجزرة الثانية أيضاً. غراف يخرج من قرى ومستعمرات أهل الجنّ. مراسيم حظر الدخول كانت دخلتْ حيّز التطبيق منذ عشر سنوات، وهو يعرف أن أهل الجنّ لن يتقبّلوا بلطف حضوره. رجل أبيض يتنقّل بمفرده في الأراضي؟ مستحيل. لو وجدوه، فإنه سيكون ميتاً بكلّ تأكيد. لذا فإنه يحتفظ بمسافة كبيرة، حاصراً نفسه بالمناطق البرّيّة الشاسعة التي تفصل الأمم المختلفة بعضها عن بعض، باحثاً عن لاند ورجاله، أجل، يصادف الجندي الهاذي، أجل، ولكنْ، ما إن يجد ما كان يبحث عنه، فإن ما يحدث هو العكس تماماً لما كان يظنّه. في سهل أجرد في المنطقة الشمالية الوسطى من الأراضي، ثمّة مُسطّح من الأرض شبيه بالمُسطّحات المالحة في يوتاه، يصادف كتلة مُكوّنة من مئة

Tele: @Arab_Books

وخمس عشرة جثّة، بعضها مُشوَّه، وبعضها سليم، وكلها تتعفّن وتتحلّل في الشمس. ليست جثث الغانجي، ولا أيّ من أمم الجنّ، بل رجال بيض، رجال بيض ببزّات الجنود، أقلّه يرتديها أولئك الذين لم يُعرّوا ويُقطّعوا أشلاء، وبينما يمضي متعثّراً بين هذه الجثث المتعفّنة التي تسبّب الروائح المنبعثة منها الغثيان، يكتشف أن أحد الضحايا ليس إلا صديقه إرنستو لاند، وقد استلقى على ظهره، واخترقت رصاصة جبينه، بينما يتكوّم الذباب والدود حول وجهه نصف المأكول. لن نطيل الكلام على ردّة فعل غراف على هذا الرعب: التّقيُّؤ والنحيب، الصراخ، وتمزيق الملابس. ما يهمّ هو هذا. لأن لقاءه بالجندي الهاذي حصل قبل أسبوعَيْن فحسب، فإن غراف يعرف أن المجزرة وقعتْ قبل فترة قريبة. إلا أن الأهمّ، ما يهمّ هو هذا: لا شكّ لديه بأن لاند ورجاله قُتلوا على يد أهل الجنّ.

يتوقّف السّيّد بلانك، لكي يُطلق ضحكة أخرى، أكثر كَبْحاً من سابقتها ربمّا، لكنها تبقى ضحكة معبّرة عن الفرح والمرارة، في آن معاً، إذ إنه ولو كان السّيّد بلانك سعيداً لإعادته تشكيل القصّة وفقاً لرؤيته هو، فإنه يعلم أنها قصّة مُروِّعة، وجزء منه يرتعش ذعراً ممّا لم يَروِه بعد.

لكنّ غراف مخطئ، يقول، إنه لا يعلم شيئاً عن المؤامرة الشرّيرة التي استُدرج إليها. إنه الرجل الساقط، كما يقولون في الأفلام، الشخص المريض الذي كادت له الحكومة، لكي يجعل الآلة تعمل. إنهم جميعاً مُتورّطون في ذلك – جوبيرت، وزير الحرب، دي فيغا، جميعهم. أجل، لاند أُرسل إلى الأراضي كعميل مُزدَوَج، مع تعليمات بأن يحرِّض أهل الجنّ لغزو الأقاليم الغربية، وهو ما سيُطلق الحرب التي تريدها الحكومة بشدّة. إلا أن لاند أخفق في مهمّته. مرّ عام، وحين لم يحدث شيء على الإطلاق، استنتج الرجال في السلطة أن لاند خانهم، وأن لهذا السبب أو ذاك تمكّن منه

Tele: @Arab_Books

ضميره، فأقام سِلْماً مع أهل الجنّ. فحاكوا دسيسة جديدة، وأرسلوا جيشاً ثانياً إلى الأراضي. ليس من ألتيما، بل من مَحمية أخرى، تبعد بضع مئات من الأميال شمالاً، وهذا الجيش أكبر بكثير من الأوّل، أكبر بعشرة أضعاف، على الأقلّ، ومع ألف جنديّ بمواجهة مئة، فإن لاند وحفنة المثاليّين الرعاع معه لن تكون لهم أيّة فرصة. أجل، لقد سمعتني بصورة صحيحة. الاتّحاد أرسل جيشاً ثانياً، لكي يقضي على الجيش الأوّل. هذا كلّه بالسرّ طبعاً، وإذا كان سيتمّ إرسال رجل مثل غراف للبحث عن لاند، فإنه سيستنتج بطبيعة الحال أن الجنّ مسؤولون عن تلك الكومة من الجثث المشوّهة المتعفّنة. عند هذه المرحلة، يغدو غراف شخصاً محورياً في العملية. ودون علْم منه، يكون هو الشخص الذي سوف يتسبّب بنشوب الحرب. كيف؟ بالسماح له بكتابة قصّته في تلك الزنزانة الصغيرة القذرة في ألتيما. دي فيغا يقوم بتعذيبه في البداية، يضربه على مدى أسبوع كامل، ولكنْ، هذا فقط لترويعه، وإقناعه بأنه سيُعدَم. وحين يحسب رجل أنه مشرف على الموت، فإنه سيعترف بكلّ شيء لحظة يُسمَح له بالكتابة. وهكذا يفعل غراف ما يريدونه منه. يحكي عن مهمّة تعقُّب لاند، وحين يصل إلى المجزرة التي اكتشفها في المسطّحات الملحية، لا يحذف شيئاً، يصف المجزرة الفظيعة برمّتها، وبأدقّ التفاصيل. وهذه هي المرحلة الحاسمة: سجلّ حيّ، من شاهد عيان لما جرى، مع إلقاء اللوم برمّته على أهل الجنّ. وحين ينهي غراف القصّة، فإن دي فيغا يأخذ المخطوط، ويطلق سراحه من السجن. غراف يذهل. كان يتوقّع الإعدام رَمْياً بالرصاص، وها هو يتلقّى مكافأة سَخيّة على عمله، ويمُنَح رحلة عودة مجانية إلى العاصمة في عربة من الدرجة الأولى. وبالوقت الذي يستغرقه للوصول إلى الديار، يكون المخطوط قد حُرِّر ببراعة، وسُلِّم لكلّ الصُّحُف في البلاد. جنود اتّحاديون يُقتَلُون على يد أهل الجنّ.

Tele: @Arab_Books

تقرير كَتَبَهُ مباشرة سيغموند غراف، مساعد مدير مكتب الشؤون الداخلية.

يعود غراف ليجد السّكّان في العاصمة، وقد تسلّحوا بالكامل، مطالبين بغَزْو الأراضي الغريبة. يفهم الآن إلى أيّ درجة تمّ خداعه. حرب بهذا الحجم يمكن أن تُدمِّر الاتّحاد، ويتّضح أنه وحده، كان الفتيل الذي أشعل النيران المُدمّرة. يقصد جوبيرت، ويطالبه بتفسير. الآن وقد سارت الأمور على خير ما يرام، فإن جوبيرت يصارحه بكل شيء بسرور. ثمّ يعرض عليه ترقية مع زيادة معتبرة في الراتب، إلا أن غراف يردّ بعرض آخر: أستقيل، يقول، ثمّ يخرج من الغرفة صافقاً الباب خلفه. في مساء ذلك اليوم، في عتمة منزله الفارغ، يحمل مسدّساً مذخّراً بالرصاص، ويطلق رصاصة على رأسه. وهذه هي. نهاية القصّة. فينيتا لا كوميديا.

Tele: @Arab_Books

كان السّيّد بلانك يتكلّم بلا توقّف منذ زهاء عشرين دقيقة، فيشعر بالتعب، ليس فقط بسبب إجهاد أوتاره الصوتية، بل إن حلقه قد استُثير بادئ ذي بدء (بمساعدة نوبة التقيُّؤ في الحمّام قبل دقائق فحسب)، فيروي الجزء الأخير من قصّته بخشونة واضحة في صوته. يغمض عينَيْه، ناسياً أن مثل هذا الفعل قد يُعيد لرأسه موكب الأطياف التي تتخبّط في العراء، عصبة المعلونين معدومي الوجوه الذين سيحاصرونه في النهاية، ويمزّقون جسده أشلاء، بيد أنه هذه المرّة يُنجيه حظُّه من الشياطين، وحين يغمض عينَيْه، يعود ثانية إلى الماضي، حيث يرى نفسه جالساً على ما يشبه كرسيّ خشبيّ، كرسي أديرونداك، كما يُسمّى بحسبه، في مرجة في مكان ما من البلاد، بقعة ريفية نائية، لا يستطيع تعرُّفها، يحيطه العشب الأخضر، وتلوح الجبال المائلة إلى اللون الأزرق في الأفق، والطقس دافئ، على نحو ما يكون في الصيف، مع سماء انقشعتْ فيها الغيوم، وشمس تكسو جسده، وها هو السّيّد بلانك، قبل سنوات من الآن، في بداية نضوجه كرجل، جالساً على الكرسي الأديرونداك حاملاً طفلاً بين ذراعَيْه، طفلة في عامها الأوّل، وقد ارتدت قميصاً وحفّاضاً أبيضي اللون، والسّيّد بلانك ينظر في عينَي الفتاة، ويتكلّم إليها بكلمات لا يُميّزها، إذ إن هذه الرحلة إلى الماضي تتمّ بصمت، وبينما يكلّم الطفلة، فإنها تنظر إليه بعينَيْن، ملؤهما الجدّ والتصميم، ويتساءل الآن، مستلقياً على السرير بعينَيْن مغمضتَيْن، ما إذا كانت هذه الطفلة هي آنا بلوم في بداية حياتها،

Tele: @Arab_Books

محبوبته آنا بلوم، وإن لم تكن آنا، فلعلّها تكون ابنته، ولكنْ، أيّة ابنة؟ يسأل نفسه، أيّة ابنة؟ وما اسمها؟ وإن كان والد طفلة، فأين هي الأمّ؟ وما هو اسمها؟ يسأل نفسه، ثمّ يسجّل ملاحظة ذهنية، لكي يحقّق في هذه الأمور المرّة المقبلة التي يدخل فيها أحدهم إلى حجرته، لكي يكتشف ما إذا كان لديه بيت في مكان ما، وفيه زوجة وطفلة، أم أنه كان له في السابق زوجة وبيت، أم أن هذه الحجرة هي المكان الذي لطالما عاش فيه، لكنّه سينسى هذه الملاحظة الذهنية، وبالتالي سينسى هذه الأسئلة كلّها، لأنه متعب جداً الآن، وصورة نفسه على المقعد الأديرونداك مع الطفلة بين ذراعَيْه قد تلاشت للتّوّ، وغطّ هو في النوم.

بسبب الكاميرا التي دأبتْ على التقاط صورة في كل ثانية خلال هذا التقرير، فإننا نعرف، على وجه اليقين، أن قيلولة السّيّد بلانك تستمرّ ٣٧ دقيقة و١٢ ثانية بالضبط. ربّما كان ليغفو مدّة أطول من هذه، لكنّ رجلاً قد دخل الآن إلى الغرفة، وأخذ ينكز السّيّد بلانك على كتفه محاولاً إيقاظه. وحين يفتح الشيخُ عينَيْه، يشعر بالحيوية التامّة، بسبب زيارته السريعة إلى أرض القيلولة، فينتصب جالساً في السرير من فوره، متيقّظاً ومستعدّاً للقاء دون أثر للنعاس في رأسه.

يتّضح أن هذا الزائر في نهاية الخمسينيّات أو مطلع السّتّينيّات، وعلى غرار فارّ من قبل، فإنه يرتدي جينزاً أزرق، ولكنْ، في حين كان فار يرتدي قميصاً أحمر، فإن قميص هذا الرجل أسود اللون، وفي حين دخل فار إلى الغرفة خالي الوفاض، فإن الرجل ذا القميص الأسود يحمل رزمة كبيرة من الملفّات وحافظات الأوراق. ويبدو وجهه أليفاً جداً، بالنسبة إلى السّيّد بلانك، إنما هذا هو شأن الكثير من الوجوه التي رآها اليوم، سواء في الصور الفوتوغرافية أو شخصياً، وبالتالي فإنه لا يتمكّن من تذكُّر اسمه.

Tele: @Arab_Books

أأنتَ فوغ؟ يسأله، ماركو فوغ.

يبتسم الزائر، ويهزّ رأسه نفياً. لا، يقول، لستُ فوغ. لمَ حسبتَني هو؟

لا أعرف، ولكنْ، حين أفقتُ الآن تذكَّرتُ فجأة أن فوغ مرّ بي في مثل هذا الوقت البارحة. معجزة صغيرة في حقيقة الأمر الآن، وقد خطرت ببالي. أعني التّذكُّر. لكنّ فوغ دخل إلى الحجرة. أنا واثق من ذلك. لشرب شاي بعد الظهر. وقد لعبنا الورق لبعض الوقت. وتحادثنا. وأخبرني العديد من النكات المضحكة.

نكات؟ يقول الزائر، مقترباً من المنضدة، وبارماً الكرسي مئة وثمانين درجة، وجالساً مع كومة الملفّات في حضنه. وبينما يفعل ذلك، ينهض السّيّد بلانك، ويمشي متثاقلاً بضع خطوات، ثمّ يجلس على طرف المرتبة، مستقرّاً في البقعة نفسها التي احتلّها فلود قبل ذلك.

أجل النكات، يواصل السّيّد بلانك، لا أتذكّرها كلها، لكنْ، ثمّة واحدة استوقفتْني بصورة خاصّة.

لن تمانع إخباري إيّاها، أليس كذلك؟ يسأله الزائر، أنا دائماً أبحث عن نكات جيّدة.

يمكنني أن أحاول، يجيب السّيّد بلانك، ثمّ يصمت لهنيهات، لكي يستجمع أفكاره. فلنر، يقول، إممم، فلنرَ. أظنّ أنها تبدأ على هذا النحو. رجل يدخل إلى حانة في شيكاغو عند الخامسة من بعد الظهر، ويطلب ثلاثة كؤوس ويسكي. ليس واحداً بعد الآخر، بل دفعة واحدة. فيحتار الساقي من هذا الطَّلَب الغريب، لكنه لا يقول شيئاً، ويقدّم للرجل ما طلبه –ثلاثة كؤوس من الويسكي مصفوفة جنباً إلى جنب على المشرب. الرجل يشربها واحداً بعد الآخر، ثمّ يدفع الفاتورة، ويغادر. في اليوم التالي

Tele: @Arab_Books

وطوال الأيّام التالية خلال الأسبوعَيْن التاليَيْن يتكرّر الأمر نفسه. أخيراً، يستبدّ الفضولُ بالساقي. لا أقصد أن أكون متطفّلاً، يقول، لكنكَ تأتي إلى هنا كل يوم منذ أسبوعَيْن، وتطلب ثلاثة كؤوس من الويسكي، وأودّ أن أعرف لماذا. فمعظم الناس يطلبون كأساً كلّ مرّة. آه، يقول الرجل، الجواب بسيط جداً. لي شقيقان. أحدهما يعيش في نيويورك، والثاني في سان فرانسيسكو، وثلاثتُنا مقرّبون جداً من بعضنا. وهذه طريقة لتكريم صداقتنا، حيث نذهب جميعاً إلى الحانة عند الخامسة من بعد ظهر كل يوم، ونطلب ثلاثة كؤوس من الويسكي، ونشرب بصحّة واحدنا الآخر بصمت، مُدَّعين أننا معاً في المكان نفسه. يهزّ الساقي رأسه، وقد فهم أخيراً سبب هذا الطقس الغريب، ولا يفكّر ثانية بالأمر. ويستمرّ ذلك طوال أربعة شهور. الرجل يأتي كل يوم عند الخامسة، والساقي يُقدِّم له ثلاثة كؤوس. ثمّ يحدث شيء ما. يأتي الرجل في الوقت المحدّد، لكنه هذه المرّة يطلب كأسَيْن فقط. فيشعر الساقي بالقلق، وبعد قليل يستجمع شجاعته، ويقول: لا أقصد أن أكون متطفّلاً، لكنْ، كلّ يوم طوال الأربعة شهور الماضية ونصف الشهر وأنتَ تأتي إلى هنا، وتطلب ثلاثة كؤوس من الويسكي. والآن طلبتَ اثنَيْن. أعرف أنّ هذا لا يخصّني، لكنني آمل فحسب ألا يكون حصل مكروه لعائلتكَ. لم يحدثْ أيّ مكروه، يقول الرجل، بمرحه المعتاد، ما الأمر، إذن؟ يسأله الساقي. فيقول الرجل: الجواب في غاية البساطة: لقد توقَّفتُ عن الشرب.

ينفجر الزائر بالضحك، وفي حين أنّ السّيّد بلانك لا ينضمّ إليه، بما أنه يعرف ختام النكتة سَلَفَاً، لكنه مع ذلك يبتسم للرجل ذي القميص الأسود، مسروراً لكونه روى النكتة بهذه البراعة. وحين تنتهي نوبة الضحك أخيراً، ينظر الزائر إلى السّيّد بلانك، ويقول له: أتعرف مَنْ أنا؟

Tele: @Arab_Books

لستُ واثقاً من ذلك، يردّ الشيخ. لستَ فوغ، بأيّة حال من الأحوال، لكنْ، لا ريب في أنني التقيتُكَ قبلاً، مرّات عدّة على ما أظنّ.

أنا محاميكَ.

محاميّ. هذا جيّد ... جيّد جداً. كنتُ آمل أن أراكَ اليوم. لدينا الكثير، لنتكلّم بشأنه.

أجل، يقول الرجل ذو القميص الأسود مربّتاً على رزمة الملفّات في حضنه. الكثير لنتكلّم بشأنه. ولكنْ، قبل الشروع في ذلك، أريدكَ أن تنظر إليّ جيّداً، وتحاول أن تتذكّر اسمي.

يمعن السّيّد بلانك النَّظَرَ في وجه الرجل النحيف الحادّ التضاريس، ويُحدّق في عينَيْه الرماديَّتَيْن الواسعتَين، ويتأمّل فكَّه وجبينه وفمه، ولكنه في النهاية لا يستطيع أن يخرج بشيء سوى تنهيدة وهزّة رأس معلناً عن هزيمته.

أنا كوين، سيّد بلانك، يقول الرجل، دانيال كوين. عميلكَ الأوّل.

يئنّ السّيّد بلانك، وقد شلّه الخزي، وتملّكه الحرج إلى حدّ أن جزءاً منه، الجزء الأعمق منه، يريد أن يرتمي في حفرة، ويموت. اعذرني رجاء، يقول، عزيزي كوين، يا أخي ورفيقي وصديقي الوفيّ. إنها تلك الحبوب اللعينة التي كنتُ أبتلعها. لقد خرّبتْ رأسي، وما عدتُ أعرف ذهابي من إيابي.

لقد أرسلتَني في مهمّات أكثر من أيّ شخص آخر، يقول كوين. أتذكر قضية ستيلمان؟

لماماً، يردّ السّيّد بلانك. بيتر ستيلمان. الابن والأب، إن لم أكن مخطئاً. أحدهما يرتدي الملابس. نسيتُ أيّهما الآن، لكنني أظنّه كان الابن.

Tele: @Arab_Books

بالضبط. إنه الابن. ثمّ هناك تلك المسألة الغريبة مع فانشاو.

زوج صوفي الأوّل. ذلك المجنون الذي اختفى.

أصبتَ ثانية. لكنْ، علينا ألا ننسى جواز السفر أيضاً. أظنّها مسألة صغيرة، لكنها كانت عملاً شاقّاً، هي الأخرى.

أيّ جواز سفر؟

جواز سفري. ذلك الذي وجدتْه آنا بلوم حين أرسلتَها في مهمّتها.

آنا؟ أوتعرف آنا؟

بالطبع. الجميع يعرفها. إنها أشبه بأسطورة هنا.

تستأهل ذلك. ليس من امرأة مثلها في العالم.

وأخيراً، وليس آخراً، هناك عمّتي مولي فيتسيمونز، المرأة التي تزوّجتْ والت راولي. ساعدتْه على كتابة مذكّراته.

والت مَنْ؟

راولي. كان يُعرَف سابقاً بالفتى المعجزة.

آه، أجل، كان ذلك منذ زمن طويل، أليس كذلك؟

صحيح. منذ زمن طويل جدّاً.

ثمّ؟

هذه هي. لقد قعّدتني بعد ذلك.

ولمَ أفعل أمراً كهذا؟ بمَ كنتُ أفكّر؟

Tele: @Arab_Books

لقد عملتُ طوال تلك السنوات، وآن أوان استقالتي. العملاء لا يعملون إلى الأبد. إنها طبيعة العمل.

متى كان ذلك؟

١٩٩٣.

وفي أيّ عام نحن؟

٢٠٠٥.

اثنا عشر عاماً. ما الذي كنتَ تفعله منذ ذلك الحين ... منذ أقلتُكَ؟

أسافر معظم الأحيان. وقد زرتُ منذ ذلك الحين بلاد الدنيا كلّها.

والآن عدتَ، وتعمل بصفتكَ محاميّ. يسرّني أن تكون أنتَ، يا كوين. لطالما شعرتُ أنني أثق بكَ.

يمكنكَ ذلك، سيّد بلانك. ولهذا كُلِّفتُ بهذه المهمّة. بسبب علاقتنا القديمة معاً.

يجب أن تُخرجني من هنا. لا أظنّ أنني أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك.

هذا لن يكون سهلاً. ثمّة الكثير من التُّهم ضدّكَ، إنني غارق في الأعمال المكتبية، عليكَ التّحلّي بالصبر. أتمنّى لو بوسعي تقديم إجابة لكَ، ولكنْ، لا فكرة لديّ كم سيستغرق حتّى تتّضح الأمور.

تُهم؟ أيّ نوع من التُّهم؟

أخشى أنها السلسلة كاملة. من جُرم الإهمال إلى الاعتداء الجنسي. من التآمر إلى النَّصْب إلى التقاعس. من القدح إلى الجريمة من الدرجة الأولى. هل أواصل؟

Tele: @Arab_Books

لكنني بريء. لم أرتكب أيّاً من هذا؟

هذه مسألة فيها جَدَل. الأمر برمّته يعتمد على الطريقة التي ينظر فيها المرء إلى الأمر.

وماذا في حال خسرنا؟

طبيعة العقوبة ما تزال موضع جدال. فهناك مجموعة تدعو للهوادة، والعفو الشامل على الجرائم كلّها. لكنّ ثمّة آخرين مُتعطّشون للدم، وهؤلاء ليسوا واحداً أو اثنَين فحسب، بل زمرة كاملة، وهم يزدادون جلبة أكثر فأكثر.

الدم. لا أفهم. أتقصد الدم بمعنى الموت.

بدلاً من الإجابة، يمدّ كوين يده إلى جيب قميصه الأسود، ويُخرج قطعة من الورق، ثمّ يفتحها، لكي يشارك السّيّد بلانك محتواها.

كان ثمّة اجتماع قبل ساعتَيْن، يقول كوين، لا أريد أن أخيفكَ، ولكنْ، أحدهم نهض واقترح هذا بالفعل كحَلّ عمليّ. أقتبس ما قاله: يجب جَرُّه في الشوارع إلى موقع الإعدام، وهناك يجب أن يُشنَق، ويُقطَّع أشلاء وهو حيّ، ويجب شَقُّ جسده وانتزاع قلبه وأمعائه، وقَطْع أعضائه التناسلية، ورَمْيها في النار أمام ناظرَيْه. ثمّ يجب فَصْل رأسه عن جسده، ويجب تقطيع جسده أربعة أجزاء، لكي يُعرَض على الملأ.

جميل، يقول السّيّد بلانك متنهّداً. وأيّ روح رقيقة خرجتْ بهذه الخطّة؟

لا يهمّ، يقول كوين. أردتُ فحسب أن أعطيكَ فكرة عمّا نتعامل معه. سوف أحارب حتّى النهاية، ويجب أن نكون واقعيّين. فكما يبدو الأمر الآن سوف نضطرّ إلى القيام ببعض المساومات.

Tele: @Arab_Books

كان فلود، أليس كذلك؟ يسأل السّيّد بلانك. ذلك القزم البغيض الذي جاء إلى هنا، وأهانني صباح اليوم.

لا، في حقيقة الأمر، لم يكن فلود، غير أن هذا لا يعني أنه ليس شخصاً خطيراً. لقد كنتَ حكيماً جداً برفض دعوته الذهاب إلى الحديقة. اكتشفنا لاحقاً أنه كان يخفي خنجراً في سترته. كان ينوي قتلكَ، ما إن يُخرجكَ من الحجرة.

آه، لقد تصوّرتُ ذلك. ذلك الحقير التافه عديم النفع.

أعرف أنه من الصعب عليكَ التأقلم في هذه الغرفة، لكنني أقترح عليكَ البقاء هنا، سيّد بلانك، وإن دعاكَ أحدهم إلى نزهة في الحديقة، لَفِّقْ عذراً ما للرفض.

إذن، ثمّة حديقة حقاً؟

أجل، ثمّة حديقة حقاً.

والطيور. أهي في رأسي؟ أم أنني أسمعها حقاً؟

أيّ نوع من الطيور؟

غربان أو نوارس، لا أستطيع الجزم أيّهما.

إنها نوارس.

إذن، لابدّ من أننا قريبون من البحر.

لقد اخترتَ المكان بنفسكَ. على الرغم من كلّ شيء كان يجري هنا، فقد جمعتَنا جميعاً في مكان رائع، وأنا شاكر لكَ لهذا.

Tele: @Arab_Books

إذن، لِمَ لا تدعني أراه؟ لا أستطيع حتّى فَتْح النافذة اللعينة.

هذا لحمايتكَ. لقد أردتَ أن تكون في الطابق الأعلى، لكننا لا نستطيع القيام بأيّ مجازفات، صح؟

لن أُقدم على الانتحار، إن كان هذا قصدكَ.

أعرف ذلك، لكنْ، لا يشاركني الجميع هذا الرأي.

هذه تسوية أخرى من تسوياتكَ، صح؟

ردّاً عليه، ينفض كوين كتفَيْه، ويُطرق رأسه، وينظر إلى ساعة معصمه.

الوقت يمرّ سريعاً، لقد جلبتُ معي ملفّات إحدى القضايا، وأظنّ أننا يجب أن نبدأ بالعمل عليها، إلا إنْ كنتَ تشعر بالتعب طبعاً. إنْ كنتَ تُفضِّل، يمكنني العودة في الغد.

لا، لا، يجيب السّيّد بلانك مشيحاً ذراعَيْه بتقزُّز. فلنقمْ بذلك الآن.

يفتح كوين الحافظة العلوية، ويُخرج منها أربع صور مقاس ثمانية بعشرة بالأبيض والأسود، جارّاً نفسه إلى الأمام على الكرسي، يُناولها للسّيّد بلانك، ويقول: بنجامين ساكس. أيعني لكَ هذا الاسم شيئاً؟

أظنّ ذلك، يجيب الشيخ، لكنني لستُ واثقاً من ذلك.

إنه رجل شرّير. أحد أسوأ الأشخاص في حقيقة الأمر، ولكنْ، إذا تمكّنّا من بناء دفاع مُحكَم ضدّ هذه التهمة، فلربّما نتمكّن من إرساء سابقة تفيدنا في القضايا الأخرى. أأنتَ معي، سيّد بلانك؟

يهزّ السّيّد بلانك رأسه بصمت، وقد بدأ ينظر إلى الصور. الصورة الأخرى تُظهر رجلاً طويلاً ضخماً في نحو الأربعين من عمره، يجثم فوق

Tele: @Arab_Books

درابزين سُلّم النجاة، في منطقة، تشبه بروكلين، نيويورك، ناظراً في الظلمة قبالته – لكنْ، حينئذ ينتقل السّيّد بلانك إلى الصورة الثانية، وفجأة يكون الرجل قد فَقَدَ تشبُّثَه بالدرابزين، وبدا يهوي في الظلمة، ظلّ من الأطراف المنشورة في وسط الهواء يغوص نحو الأسفل. هذه الصورة تُحدث في نفسه قَدْراً كافياً من الاضطراب، لكنْ، ما إن يصل السّيّد بلانك إلى الصورة الثالثة، حتّى تعتريه رعشة من التّنبُّه. الرجل الطويل بات على طريق متّسخة في مكان ما في الأرياف، وهو يلوّح بمضرب سوفتبول معدنيّ على رجل مُلتحٍ، يقف قبالته. الصورة مُتجمّدة عند اللحظة التي يصطدم فيها المضرب برأس الرجل المُلتحي، ومن النظرة على وجهه، من الجليّ أن الضربة ستُودي بحياته، وأنه في غضون ثوان، سوف يسقط أرضاً، وقد تحطّمتْ جمجمتُه، بينما الدم ينبجس من الجرح، ويتكوّم في بركة حول جثّته.

يضع السّيّد بلانك يَدَيْه على وجهه، مُمزِّقاً الجلد بأصابعه. يجد من الصعوبة أن يتنفّس الآن، إذ إنه يعرف سَلَفَاً محتوى الصورة التالية، وإن لم يكن يتذكّر كيف أو لماذا يعرف، ولأنه يستطيع توقُّع انفجار القنبلة اليدوية الصُّنع التي ستُمزّق الرجل الطويل، وتذري جسده المُشوَّه في الرياح الأربع، فإنه لا يجد في نفسه القوّة، لكي ينظر إليها. بدلاً من ذلك، فإنه يدع الصور الأربع تنزلق من يده على الأرض، ثمّ، رافعاً اليَدَيْن نفسيهما إلى وجهه، يُغطّي عينَيْه، ويبدأ بالنحيب.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الآن كوين قد رحل، ومجدّداً السّيّد بلانك وحده في الحجرة، يجلس إلى المنضدة والقلم الكرويّ بيده اليمنى. انهمار الدموع توقّف قبل أكثر من عشرين دقيقة، وبينما يفتح الحشية، ويقلّبها إلى الصفحة الثانية، يقول لنفسه: كنتُ أقوم بعملي فحسب. إذا سارت الأمور على نحو سيّئ، فإن التقرير ما يزال يجب أن يُكتَب، ولا يمكن لَوْمي لقولي الحقيقة، أليس كذلك؟ ثمّ، صابّاً اهتمامه على المهمّة الملقاة على عاتقه، يضيف ثلاثة أسماء إلى قائمته:

جون تراوز.

صوفي.

دانيال كوين.

ماركو فوغ.

بنجامين ساكس.

يضع السّيّد بلانك القلم من يده، ويقفل الحشية، ويزيحها والقلم جانباً. يدرك الآن أنه كان يتأمّل أن يزوره فوغ، الرجل المليء بالقصص المضحكة، ولكنْ، ورغم أنه لا ساعة في الحجرة، ولا في معصمه، ما يعني أنه لا فكرة لديه عن الوقت، ولا حتّى فكرة تقريبية، فإنه يشعر أن ساعة الشاي والحديث الخفيف قد انقضتْ. ربمّا، قبل أن يمضي وقت طويل،

Tele: @Arab_Books

ستعود آنا، لكي تقدّم له الغداء، وإن حدث، ولم تكن آنا، بل امرأة أخرى، أو رجل أُرسل بدلاً منها، فإنه ينوي أن يحتجّ، أن يسيء التّصرُّف، أن يصرخ ويُحدث هرجاً ومرجاً، من شأنهما إطاحة سقف الحجرة نحو السماء.

بسبب عدم وجود أمر أفضل يقوم به الآن، يقرّر السّيّد بلانك المضي في القراءة. مباشرة تحت قصّة تراوز عن سيغموند غراف والاتّحاد ثمّة مسوّدة أطول، تبلغ مئة وأربعين صفحة، على عكس العمل السابق، لها صفحة غلاف، سجّل عليها العنوان واسم المؤلّف.

رحلات في حجرة الكتابة

بقلم: ن. ر. فانشاو

آها، يهتف السّيّد بلانك. هذا أقرب إلى المسألة. ربمّا وصلنا أخيراً إلى مكان ما في نهاية المطاف.

ثمّ يقلّب الصفحة الأولى، ويبدأ بالقراءة:

يجلس الشيخ على طرف السّرير الضّيّق، واضعاً راحتَي يدَيْه فوق ركبتَيْه، مطرقاً الرأس، يُحملق بالأرض. لا فكرة لديه بأن ثمّة كاميرا على السقف مُصوّبة مباشرة نحوه. مصراع الكاميرا يُغلق ويُفتح بصمت مرّة كلّ ثانية، مُنتجاً ثمانية وستّين ألفاً وأربعمائة صورة مع كلّ دوران للأرض. وحتّى لو عرف بأنه مُراقَب، لما شكّل ذلك أيّ فرق. فعقلُه سارح في مكان آخر، في مخيّلته، بحثاً عن جواب عن السؤال المؤرق.

مَنْ هو؟ ما الذي يفعله هنا؟ متى وصل إلى هنا؟ وكم سيبقى؟ نأمل بأن الوقت سيُخبرنا بذلك. أما في الوقت الراهن، فإن مهمّتنا الوحيدة تنحصر في دراسة الصور، بقدر ما أمكننا من التيقّظ، والامتناع عن استخلاص أيّة نتائج مُتعجّلة.

Tele: @Arab_Books

أشياء عدّة تتوزّع في أرجاء الغرفة، وفوق كلّ واحد منها شريط أبيض، كُتب عليه كلمة واحدة، بأحرف منفصلة. على منضدة السرير، مثلاً، كُتب "منضدة". وعلى المصباح "مصباح". وحتّى على الجدار، وهو لا يُعدّ "شيئاً" بكلّ معنى الكلمة، كُتب على الشريط اللاصق كلمة "جدار". يرفع الشيخ رأسه لبرهة، يرى الجدار، ويرى الشريط الملصَق عليه، ويلفظ، همساً، كلمة "جدار". ما لا يستطيع معرفته في هذه المرحلة هو ما إذا كان يقرأ الكلمة على الشريط، أو أنه يشير ببساطة إلى الجدار نفسه. ربّما يكون قد نسي القراءة، لكنّه ما يزال يمُيّز الأشياء على حقيقتها، ويستطيع معرفتها من أسمائها، أو على العكس، ربّما فَقَدَ المقدرة على تمييز الأشياء على حقيقتها، لكنه ما يزال قادراً على القراءة.

يرتدي مَنامة قطنية مُقلّمة بخطوط زرقاء وصفراء، وفي قَدَمَيه زوج من الأخفاف الجلدية السوداء. ليس بيّناً بالنسبة إليه أين هو على وجه التعيين. صحيح أنه في الحجرة، ولكنْ، في أي مبنى تقع هذه الغرفة؟ أهي في بيت؟ أم مشفى؟ أم في سجن؟ لا يستطيع تذكُّر الوقت الذي مضى عليه ههنا، أو طبيعة الظروف التي أدّت إلى وجوده في هذا المكان. ربّما كان هنا منذ البداية؛ ربّما يكون هذا المكان الذي يعيش فيه منذ ولادته. ما يعرفه جيّداً أن قلبه طافح بإحساس قاتل بالذنب. وفي الوقت عينه، لا يمكنه التخلّص من شعوره بأنه ضحية ظُلم مُروّع.

في الغرفة نافذة واحدة، لكنّ الستارة مُسدَلة فوقها، وبقدر ما تُسعفه الذاكرة، فإنه لم ينظر بعد من هذه النافذة. والأمر نفسه ينطبق على الباب ومقبضه البورسلانيّ الأبيض. أهو محبوس؟ أم أنه حُرّ بالدخول والخروج كيفما يشاء؟ ما يزال عليه استكشاف ذلك، إذ إن عقله، وكما هو مبيّن في الفقرة أعلاه، سارح في مكان آخر، في الماضي، بينما يطوف متنقّلاً بين أطياف في رأسه، مكابداً للإجابة عن السؤال الذي يقضّ مضجعه.

Tele: @Arab_Books

الصور الفوتوغرافية لا تكذب، وفي الوقت نفسه، لا تروي القصّة الكاملة. فهي مجرّد سجلّ عن مرور الزمن، الدليل البرّاني على ذلك. فعلى سبيل المثال، يصعب تحديد سنّ الشيخ اعتماداً على الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، والتي تعلوها طبقة من الضباب. الحقيقة الوحيدة التي يمكن ذِكْرها بشيء من التيقّن هي أنه ليس شابّاً، غير أن كلمة "شيخ" هي تعبير فضفاض، ويمكن استعمالها لوصف الشخص في أيّ عمر ما بين السّتّين والمئة. وبالتالي سنتخلّى من الآن فصاعداً عن كنية "الشيخ"، ونشير إلى الرجل في الحجرة باسم "السّيّد بلانك"، ولن نحتاج إلى اسم أوّل.

أخيراً ينهض السّيّد بلانك، يتريّث برهة، ليحافظ على توازنه، ثمّ يجرّ قَدَمَيْه إلى المنضدة في الطرف المقابل من الحجرة. يشعر بالتعب، وكأنه أفاق للتّوّ من نوم قصير متقطّع، وصوت انجرار خفَّيْه على الأرض الخشبية العارية، يُذكِّره بصوت ورق السّنفرة. بعيداً، خارج هذه الحجرة والمبنى الذي يضمّها، يسمع زعيق طير بعيد – ربّما كان غراباً، ربّما نورساً، لا يستطيع أن يعرف أيّهما على وجه اليقين.

Tele: @Arab_Books

الآن يكون السّيّد بلانك قد قرأ كل ما يمكنه هَضْمه، وليس بمسرور، ولو بالحدّ الأدنى. في انفجار من الغضب الجامح والإحباط يرمي المخطوط وراء ظهره بضربة قوية من معصمه، غير مهتمّ حتّى بالالتفات، لكي يرى أين حطّ. وبينما يرفرف في الهواء، ثمّ يرتطم بالأرض خلفه، يضرب المنضدة بقبضته، ويقول صارخاً: متى سينتهي هذا العَبَث؟

لن ينتهي أبداً. ذلك أن السّيّد بلانك هو واحد منّا الآن، ومهما ناضل لفَهْم الورطة التي هو فيها، فسيظلّ تائهاً دوماً. أظنّ أنني أتكلّم على كلّ تُهمه حين أقول إنه نال ما يستحقّه – لا أكثر ولا أقلّ. لا كنوع من العقاب، بل كتصرُّف ينطوي على العدالة القصوى والتعاطف. لولاه لما كنّا شيئاً، لكنّ التناقض هو أننا نحن، الأخيلة الملفّقة لعقل آخر، سوف نعيش أكثر من العقل الذي ابتدعنا، إذ ما إن نُرمى في العالم، حتّى نواصل العيش إلى الأبد، وقصصنا تُروى دوماً، حتّى بعد موتنا.

ربّما يكون السّيّد بلانك قد تصرّف بقسوة مع بعض رعاياه على مَرّ السنين، ولكنّ أحداً منّا لا يظنّ أنه لم يفعل كلّ ما في مقدوره لكي يخدمنا جيّداً. ولهذا السبب أنوي تَركَه حيث هو. الحجرة هي عالمه الآن، وكلّما طال العلاج، تقبّل أكثر الكرم الكامن في ما فُعل من أجله. السّيّد بلانك مُسنّ وواهن، ولكنْ، ما دام في الحجرة ذات النافذة المقفلة والباب المُوصَد، فلن يموت أبداً، ولن يختفي أبداً، ولن يكون سوى الكلمات التي أكتبها على صفحته.

Tele: @Arab_Books

بعد فترة وجيزة، سوف تدخل امرأة الغرفة، وتُطعمه. لم أقرّر بعد مَنْ ستكون تلك المرأة، ولكنْ، إذا سارت الأمور جيّداً بين الآن وذلك الحين، فسوف أرسل آنا. وهذا سيُسعد السّيّد بلانك، وفي نهاية المطاف، لقد عانى بما فيه الكفاية ليوم واحد. سوف تتولّى آنا إطعامه، ثمّ تُحمّمه، وتضعه في السرير. سوف يظلّ السّيّد بلانك مستيقظاً في الظلمة لبعض الوقت مصيخاً السَّمْع إلى زعيق الطيور البعيدة، لكنّ عينَيْه سوف تثقلان أخيراً، وسوف ينطبق جفناه. سوف يغفو، وحين ينهض من النوم في الصباح، سيُستأنف العلاج ثانية. ولكنْ، الآن ما يزال هو اليوم الذي كان منذ الكلمة الأولى في هذا التقرير، والآن هي اللحظة حين تُقبّل آنا السّيّدَ بلاك على وجنته، وتضعه في السرير، والآن هي اللحظة التي تنهض فيها عن السرير، وتمضي نحو الباب. نوم هانئ، سيّد بلانك.

الأضواء تنطفئ.

Tele: @Arab_Books

تمت

23/9/2017

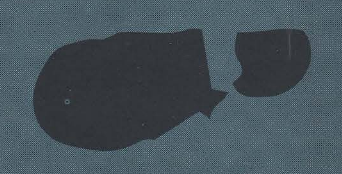
Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

بول أوستر: ولد عام ١٩٤٧، وهو روائي، وناقد، وشاعر، ومترجم، وسينارست ومخرج وممثل ومنتج سينمائي. يعيش حالياً في بروكلين في نيويورك.

أوستر هو من أبرز الشخصيات في الأدب الأمريكي والعالمي المعاصر. يُنسب إلى أدب ما بعد الحداثوية.

اثنا عشر كتاباً لأوستر كانت الكتب الأكثر مبيعاً في العالم. كما أن كتبه تُرجمت لأكثر من ثلاثين لغة.





منشورات المتوسط

في هذا الكتاب، «يحتفي أوستر برفق بقوة الخيال، ويُعجب بطبيعة العقل المتَاهيّة في إجلال فلسفي بارع وماكر، للقصص المتفوقة».

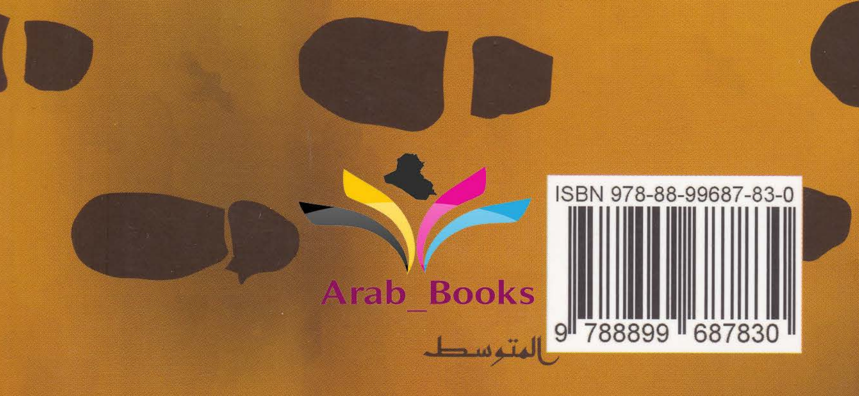
«بوك ليست أونلاين»

السيد بلانك يجلس على السرير، وحيداً وبالبيجامة، في غرفة مغلقة. لا يعرف كيف وصل إلى هذه الغرفة، التي قد تبدو سجناً أو غرفة مشفى.

من هو السيد بلانك؟

في الغرفة توجد طاولة، وكومتان من الأوراق المصفوفة على الآلة الكاتبة، وعشرات الصور الفوتوغرافية. وفي يوم واحد، حيث تدور أحداث الرواية كلها، يستقبل السيد بلانك عدة مكالمات هاتفية، وزيارات من بعض أشخاص الصور الفوتوغرافية. لكن الأسماء والوجوه لا تعني شيئاً للسيد بلانك، في حين أنه يبدو عليهم أنهم يعرفونه جيداً، بل أنهم ينتظرون منه شيئاً ما، شكلاً من أشكال التعويض أو التكفير!

في صنعة سردية متقنة تبدو كأنها تُذكر بكوميديات «بيرانديللو» وسرديات «بيكيت» في الوقت نفسه، يترحل بول أوستر في حجرة الكتابة ليعالج مسألة المسؤولية الأخلاقية للكاتب تجاه شخصياته الخيالية.



ISBN 978-88-99687-83-0
9 788899 687830